# فـــي صنـــاعة الكتـــاب

الأكيد أنّ التئام الدّورة السنوية لمعرض الكتاب تتجاوز الطابع الإحتفالي لتبرهن على تطوّر فن الطباعة ببلادنا، خصوصا أنّ هذا الفن قديم في تونس وتكفي العودة إلى العدد المهول من المطبوعات والجرائد التي شكّلت تراكما نوعيّا عبر الزمن لنتبيّن مدى تأصّل الإهتمام بالكتاب في عقليّة التونسي..

لكن هذا المعطى التاريخي لا يمكنه أن يحجب عنا التساؤلات التالية :

* الإبداع في مختلف تجليّاته لا يمكنه أن يلقى رواجا واسعا إذا لم يتعاضد فيه المضمون مع الشكل...

فالتوزيع البصري للكتاب ، لغلافه في المقام الأول دور كبير في جذب الإنتباه وشد الذهن يترافق داخله البصر بالبصيرة.

* الكثير مما يطبع. وبصرف النظر عن محتواه لا يرقى إلى مستوى الكتاب الثقافي الجيد، وتحس أثناء تصفحك إياه أن صاحبه تسرّع في دفعه إلى المطبعة ليصبح من أصحاب العناوين..

* لا بدّ من البحث عن شروط تلتزم بها دور النشر لتحافظ على الشكل قدر حفاظها على المضمون، حتى لا يكون الربح السريع وإلزام المؤلف بإقتناء عدد معلوم من النسخ هو هدفها الرئيسي من عملية الطباعة.

* لماذا ترتكب بعض دور النشر سرقات موصوفة عندما تبادر إلى السطو على غلاف كتاب ما وتنسبه إلى نفسها.. يكفي أن نذكر غلاف ديوان محمود درويش الأخير (لماذا تركب الحصان وحيدا) الذي وجدنا أنه يتناسخ من دار نشر إلى أخرى ودون أن ندخل في التفاصيل... ألا يمكن اعتبار ذلك سطوا على حقوق الإبتكار؟

فهناك ملكية فنية لا بد من مراعاتها.

وفي نفس الإطار نتساءل : هل تتعامل دور النشر مع فنانين تشكيليين لهم دراية بتصميم الغلاف أو فنيين يحترمون مهنتهم؟ وكم من دار لها هذا التوجه الحرفي؟ أم أن الشكل ينجز كما اتفق؟ نؤكد على هذا الجانب لان لنا دور نشر تحترم القارئ ولها خصوصياتها وسمعتها خارج البلاد، فعندما تحرص على هذا الجانب فإنها تكون مساهمة في التعريف بالمنتوج الوطني داخليا وخارجيا.

كما أن العديد من الكتب المنشورة الإبداعية منها بالخصوص لا تحترم شروط (القرافيك) فتجد الأسطر موزعة كما اتفق، وبحروف غليظة وكأنها كتب موجهة للأطفال والحال أنها آثار إبداعية... غاية ذلك معروفة وهي تضخيم حجم الكتاب والحيلة في ترك الحيل كما قيل قديما.

هذه ملاحظات نسوقها إلى إدارة معرض تونس للكتاب ومن خلالها إلى وزارة الثقافة التي بإمكانها أن تكلف مختصين لمعاينة الوضع الحالي للكتاب التونسي.

**المســـــار**

> * الكثير مما يطبع. وبصرف النظر عن محتواه لا يرقى إلى مستوى الكتاب الثقافي الجيد، وتحس أثناء تصفحك إياه أن صاحبه تسرع في دفعه إلى المطبعة ليصبح من أصحاب العناوين..

# عن الإعــلام والــرأي المخــالف



رضا الملولي*

أعتقد أنّ الحديث عن الإعلام حديث متجدّد على الدّوام لأنّه مقياس حرية الرأي والتعبير بإعتبارها الدالة على تطوّر الشعوب ونهضتها...

ولن يستقيم حديثنا عن الإعلام إذا ما حصرنا نواقصه وعدم تعبيره عن تطلعات النخب في بلادنا في الرقابة الذاتية لوحدها... وهنا نتساءل : ما الدّاعي إلى استفحال الرقابة الذاتية إذا ما آمن كلّ طرف (الناشرون والصحافيون) بدوره وإذا ما كانت الأجواء داخل المؤسسات الصحفية سليمة وتقودها المهنية بدرجة أساسية والإيمان بقداسة الخبر في عصر زالت فيه الحواجز المادية المفترضة... إنّ الإيمان بالدّور الحضاري للصحافة بعيدا عن كل أشكال الولاءات «والتدخلات» غير المهنية هو الكفيل لوحده بتحرير الأذهان والطاقات، كما أنه الدافع إلى تجسيد مدنية المجتمع والتي تقوم على التعاقد واحترام الآراء المخالفة مادامت لم تخلّ بأسس هذا التعاقد كنبذ العنف والتطرّف والحفاظ على المكتسبات الحديثة مثل تحرّر المرأة وعدم الزج بالدّين في أتون السياسة ... إن ما بلغه المجتمع التونسي من تطوّر هو رهين تطوّر أفراده ومثلما تتمّ المناداة بحقوق وحريات متعدّدة و يسعى الجميع إلى احترامها وتجسيدها فإنّ من الحقوق الأساسية للمواطن، حقه في إعلام حرّ تعدّدي، يقوم بوظيفة نقدية داخل المجتمع ويشير إلى مواطن الخلل بعيدا عن كلّ أشكال الوصاية والإقصاء...

ما من شكّ في أنّ رواسب عديدة حالت دون الصورة المثلى للإعلام الذي نهفو إليه ومن هذه الرّواسب العقليات العتيقة التي لا تؤمن بالتعاقدية وترى في الرأي المخالف شرّا كامنا يجب القضاء عليه في المهد والحال أنّ تنوّع الآراء داخل المجتمع ثراء حقيقي للمجتمع ذاته..

إنّ الأقلام الحرّة داخل المجتمعات صمّام أمان حقيقي ضدّ المتملقين والمأجورين والسّفهاء من كلّ المشارب الذين يسوؤهم أن تتجه نحوهم سهام النقد ويختلقون موانع ومحرّمات تعود بالمجتمع إلى الوراء..

الحداثة منظومة مكتملة، تتناغم من خلالها كلّ المكوّنات المجتمعية، فلا يمكن أن توجد حداثة سياسية قائمة على التعدّدية بمعزل عن الحداثة على صعيد الإعلام القائمة على تنوّع الآراء وتضاربها واختلافها البيّن...

نفس الشيء ينطبق على العلاقة القائمة بين الإقتصاد والسياسة فلا توجد تحررية اقتصادية بدون تحررية سياسية يشكل الإعلام الحرّ أهم دعاماتها...



* كاتب تونسي ، رئيس تحرير المسار

# أمة العرب لن تموت وانّي. أتحدّاك بإسمها يـا فناء

علي عقلة عرسان *

بسم الله الرحمان الرحيم

« وقل ربي أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا»

السيد الأستاذ طارق عزيز :

نائب رئيس مجلس الوزراء

ممثل سيادة الرئيس صدام حسين رئيس جمهورية العراق راعي المؤتمر الحادي والعشرين للأدباء والكتاب العرب .

السادة أعضاء قيادة قطر العراق لحزب البعث العربي الاشتراكي في العراق .

السادة الوزراء

السادة السفراء

الزميلات والزملاء رؤساء وأعضاء الوفود العربية المشاركة في المؤتمر أيها الحضور الكرام :

أحييكم أجمل تحية ، وأتوجه من خلالكم لشعبنا العربي في العراق العزيز ، وقياداته ومثقّفيه جميعاً بالتقدير والمودة والاحترام ، وبجزيل الشكر على احتضان بغداد لمؤتمرنا هذا ولمهرجان الشعر العربي الثاني والعشرين ، وعلى ما قدم ويقدم لنا من تسهيلات ورعاية وحفاوة تجعلنا واثقين من وصول هذا المؤتمر إلى مايتطلع إليه من نجاح .

إن وجودنا اليوم في بغداد ، ووصولنا إليها مباشرة من دمشق ،في تجمع نوعي للأدباء والكتاب العرب ، وفي توقيت يسفعنا فيه الدم وتلاحقنا الذكريات من فضاء ( العامرية) إلى فضاء القدس ، حيث الانتفاضة المباركة ومقاومة الاستعمار والاحتلال الصهيوني والتعلق بالحرية والكرامة ومجد الأمة ، وجود مشحون بالعواطف والمواقف والدلالات ، غنيٌ بالمؤشرات الإيجابية لمن يقرأ كتاب الحياة العربية المعاصرة بتفاؤل خالٍ من الوهم وبإيمان عميق بأن التاريخ تصنعه الأمم في كل فجر صحوة ونشوة جيل ووعي إرادة ، وأن لانهاية من أي نوع له بوصفه سجل الحياة والإرادة الحية والثورة على الظلم والذل والعبودية والتبعية والفساد والطغيان .

إننا في بغداد لنقول للقاصي والداني ، للعدو والصديق ، للمحبط والمتفائل ، للحاضر والمستقبل :

**أمة العرب لن تموت وإني أتحداك باسمها يافناء**

**ولنعلن من هنا وبملء الصوت :**

- أنه **آن الأوان** لوقف العدوان الأميركي- البريطاني على العراق ، ووقف هذه العربدة الشريرة في سمائه ، وآن للمجتمع الدولي ومؤسساته، التي تزعم تمثيله بتوازن وعدالة ، أن يضع حدًا للغطرسة وسياسة الكيل بمكيالين والعبث بسيادة بلدان ووجودها ومستقبل أجيالها ، تحت غطاء الشرعية الدولية ، عبث تقوم به قوة تحركها

* كاتب سوري الأمين العام للإتحاد العام للأدباء والكتاب العرب

الصهيونية العنصرية وتوظفها لتحقيق أطماع ومصالح ومخططات ، تكلف الأمة العربية الكثير ولكنها لن تجعل هذه الأمة تستسلم ، ولن تخرجها خارج التاريخ .

-وأنه **آن الأوان** لرفع الحصار الظالم عن العراق بشكل كلي وشامل ، ووقف البرنامج الإجرامي الموجه ضده : برنامج العقاب الجماعي ، والإعاقة المبرمجة ، وتوظيف برمجة الأزمات ، الذي يهدف إلى إطالة معاناة شعب تثقل معاناته ضمائر المفكرين والمبدعين المنصفين في كل أنحاء العالم ، ومعاقبة أجيال وهي في الأرحام ، ومنع الإنسان من الحصول على حقه الطبيعي المحمي قانونيًا وشرعيًا و دوليًا ، في الحصول على المعرفة ، وتحقيق التقدم العلمي والتقني في كل مجال من مجالات الحياة ، وامتلاك قوة يدافع بها عن نفسه وأرضه ومصالحه وهويته وعقيدته .... قوة تحمي ذاته ولا تنهك ذوات الآخرين ....

- **آن** أن يوضع حد لمسلسل خلق الظروف الصحية والاجتماعية والاقتصادية الرامية إلى فرض التخلف على الآخرين ، وإفساد مناخ الحياة السليمة ومنظومات القيم الروحية والإجتماعية ، وجعل بنى رئيسة تنهار بهدف إيجاد بدائل سياسية !!

-و إنه **آن الأوان** لأن تقوم الدول العربية بإنهاء الوجه العربي الرسمي للحصار المفروض على العراق وعلى أقطار عربية أخرى بصيغ مختلفة ، ووضع حدٍ لأشكال الحصار العربي -العربي الذي تمارسه أو تدعو إلى ممارسته -سراً أو علناً في بعض الحالات والأوقات - تلبيةً لمصلحة قطرية ضيقة عانت أمتنا منها الكثير .

-وإنه **آن الأوان** لتقوم بين أقطار الأمة وحكامها وحكوماتها جسور من المودة والثقة على أساس من الإحترام المتبادل والأمن المتبادل ، والتقدير العميق للشعب الواحد الذي جزأته السياسات ، أو ورثت تجزئته عن الاستعمار فكانت أشد من الإستعمار محافظة على تلك التجزئة وتمسكا بها .

إننا نقول من بغداد ، إحدى أهم عواصمنا الحضارية العربية عبر التاريخ ، قديمه وحديثه : إن الكتاب والأدباء العرب يستشعرون في هذه الظروف وبمواجهة تحديات الاحتلال الصهيوني ، والاستعمار الغربي ، وتحديات العصر والعلم والثقافة والعولمة والمعلوماتية ...يستشعرون الحاجة القصوى إلى مبادرات سياسية عربية خلاقة تتجاوز ظلمة الحاضر إلى نور المستقبل والقطري إلى القومي ، ومصالح الأنظمة والأقطار إلى مصالح الأمة والأجيال ..مبادرات تاريخية خلاقة من شخصيات تاريخية خلاقة تنهي القطيعة بين الأنظمة التي يدفع ثمنها الشعب وتؤسس للثقة المتبادلة على أساس متين من الاحترام والمودة والمصالح العليا والقيم العليا ، التي تحكم الأمور وينبغي أن تحكمها .. وتستجيب لمطالب الشعب العربي في كل أقطار الوطن ... ومطالب مثقفيه المنتمين للأمة وطلائعه التي يثقل كاهل أفرادها بؤس الأمة ... وضآلة بصيص النور في آخر النفق ...

**مطالبهم في :**

- وضع حد للتورم القطري على أساس الصحة القومية ولحقيقة أن القطرية في الوطن العربي غدت صيغة اعتراضية على القومية ، ومعوقة لمواجهة تحديات العصر وتطلعات الشعب واستحقاقات التحرير والتحرر.

-أمنٌ من جوع وخوفٍ في الأرض العربية كلها التي يعربد

فيها الاحتلال والاستعمار والموت والفقر والفساد والطغيان ، ويخترق جبهاتها العملاء والأدعياء والإدعاء، وينخر كل ذلك شجرتها السامقة . والحرية هي أساس الحياة ومعناها ، أساس الكرامة ومعناها ، وركن التحرير ومبتداه ، لأن الإنسان الحر هو الذي يختنق تحت وطأة الاستعمار والعبودية ، ولا يمكن أن يتعايش معهما ولأن العبد ينغمس في العبودية ويدمنها ويفتقد غيابها ، ولا يحرر الأرض والإرادة والقرار والسلاح ..إلا الأحرار المبدعون في مجال فهم الحرية المسؤولة والمسؤولية التي تستوجب الحرية وتستدعيها .

– وقفة عز فيها قوة منقذة وإرادة موحدة وكرامة مجسَّدة: تردع العدو الصهيوني أو ترهبه أو ترهقه ليكف عن تدنيس مقدساتنا و تهويدها ، وعن ابتلاع أرضنا واستيطانها ، وعن قتل أطفالنا وترويع أهلنا في فلسطين والجولان و جنوب لبنان وحصارهم.

**إننا ، نحن الكتاب العرب في شبه ازدواجية أو فصام أو كابوس من وهم ويؤس :**

نستشعر المرارة والإحباط والعار ونحن نتفرج على الصغار يقاتلون المحتل ويستشهدون ، ونستشعر ذلك بصورة أشد عندما نكتب عنهم وعن استشهادهم وعن دمهم البريء ، فشتان بين من يكتب سفر خلاص الأمة بدمه ومن يكتب عن خلاص الأمة أسفارًا بقلمه ... شتان بين الحبر والدم .

صحيح أننا لسنا صورة الفعل الأمثل لكن لسنا مجرد حكائين على قارعة الطريق ليس لبضاعتهم ردع ولا نفع ولا رواج في أمة أصمت آذانها وأغلقت على جيوشها الباب بالقفل والمزلاج. وحين تزحف في دمنا وفي أرواحنا النشوة والنخوة ، ونحن ننظر إلى حجر ولحم عارٍ يواجهان دبابة وصاروخاً ، ونسمع هديرنا في الإذاعات ونعجز عن إيصال بندقية لمقاتل ... ويلطمنا الواقع والوقائع على الخد .. نجدنا في الفضاء بين الأرض والسماء نغرس أقدامنا في طين الأرض و تمتد أبصارنا وأيدينا إلى السماء ، فنحن أبناء الرسالات السماوية الثلاث وأبناء الطين والماء المهين والواقع المر المعيش .. منذ بداية التاريخ . لا نريد أن نكون سلعة في سوق الكلام ...ولا شكوى على أبواب الأمم .. ولا جثثا تتناهشها الغربان.

ونريد أن نكون لأمتنا كلها لكي تكون أمتناً كلهاً لنا عندما يلحق بنا الضيم .

ونريد أن نعيد لقضيتنا المركزية قضية فلسطين بعدها القومي ومسؤولياتها القومية ، لأنها كذلك ولأن المشروع الصهيوني يستهدفنا جميعا انطلاقا من فلسطين .

ونريد أن نوقف مد الاعتراف بالعدو الصهيوني والتطبيع العربي معه ، ونبادله حصاراً بحصار ونا را بنار في المواقع كلها ، ومن لنا في ذلك غير أنفسنا وإرادتنا وقوانا الروحية والمادية ؟!

إننا نريد لجبهتنا الثقافيّة حضورا يفرض الفاعلية والاحترام ويعيد المصداقية والحيوية للكلمة وينعش تأثيرها في الجماهير ، ويفرض هيبتها في ساحة صنع القرار السياسي العربي لتكون أداة الوعي والتغيير والبناء والتطوير ، ولتكون أحد أسلحة الأمة في مواجهة العدوان والاختراق والتشويه المتعمّد لصورتنا ونضالنا المشروع وقضايانا العادلة ، ولن يكون ذلك إلا على أساس متين من الوعي المعرفي العميق بالذات والعصر والتحديات ، وعلى أساس من احترام الرأي والرّأي الآخر وحرية التعبير تحت سقف الإنتماء للوطن والمصلحة العليا للأمة

والمسؤولية عن الحاضر والانتماء إليه ، وبممارسة ديمقراطية نظيفة في إطار حرية مسؤولة تجعل المواطن مستوفيا لحقوق المواطنة وواجباتها ، وتجعل المسؤولية أمانة يسأل عنها المسؤول ويحاسب عليها ، وتجعل من كل فرد شريكا كامل الشراكة عن الحاضر والمستقبل والمصير.

إن الثقافة العربية تحتاج إلى كثير من الإمكانيات لتأخذ مكانتها وتؤكد حضورها في ساحة المثاقفة الدولية ولقاء الحضارات ، وهذه مسؤولية المثقفين والمسؤولين ، مسؤولية المبدع والمتلقي.. والثقافة العربية تخوض معركة تأكيد الثوابت والحقوق التاريخية ، وهي تعاهد الأمة على العمل من دون كلل لمقاومة الصهيونية العنصرية واستنفار الطاقات للنهضة والتحرير ، وقد رفضت وترفض كل شكل من أشكال الاعتراف بالعدو الصهيوني وكل شكل من أشكال تطبيع العلاقات معه حتى لو وافقت الدول العربية جميعاً على ذلك لا سمح الله ووقعت اتفاقات إذعان على شاكلة تلك التي تعبث بوجداننا العربي اليوم وتثقل وجداننا تنخَرُ قوة الأمة ووحدة موقفها .

إن فلسطين عربية وستبقى عربية واستعادتها واجب الأمة وأجيالها ، والأدباء حراس ذاكرة و وجدان وسدنة وعي ، وهم يلتزمون بالعمل في كل الجبهات من أجل تعزيز الصمود العربي وجعل الأجيال تذكر فلسطين وتقاتل من أجل تحريرها ، تذكر القدس و تعي أن العرب أول من أشادها عام (3200ق.م) -فقد أشادها اليبوسيون العرب وهم فخذ من الكنعانيين العرب -وتقاتل من أجلها بوصفها رمزا قوميا ودينياً .

إننا نقف صفاً واحداً خلف الانتفاضة المباركة وننحني بإجلال أمام الشهداء الذين سقطوا ويسقطون على طريق التحرير ، ونحيي بإكبار النضال البطولي للشعب العربي الفلسطيني المتمسك بالحق والأرض والكرامة ، ونؤكد أن المقاومة المنظمة - المسلحة مدخل من مداخل التحرير وبقاء القضية حية ، وقد قدمت المقاومة في جنوب لبنان أنموذجاً لإرادة الأمة وفعلها في التحرير ودرسا لابد من الاستفادة منه .

**تحية للعراق وليرفع الحصار ولتعد لحمة العرب قوية على أساس من الاحترام و الأمن المتبادل .**

**تحية لفلسطين شعباً وتاريخاً و انتفاضة و مقاومة.**

**تحية لا هلنا الصامدين في الجولان وجنوب لبنان .**

**تحية لشهداء أمتنا الذين سقطوا من أجل التحرير والتحرر و الوحدة .**

وإلى غد تجمعنا فيه المواقف على المودة والتضحية والوفاء لأمة العرب التي مازال يهز ضميرها القول الطيب، ويجمعها قول شاعرها :

**حتى إذا احتربت يوما وسالت دماؤها**

**تذكرت القربى ففاضت دموعها**

**وإن النصر لنا بعون الله**

**بغداد في 2001/1/22**

# تأملات في واقع الحصار الثقافي: وضع المثقف المبدع نموذجا

خالد الغريبي*

لا بد من التسليم بدءًا ، أن الموضوع المطروح « تأملات في واقع الحصار الثقافي ، وضع المثقف المبدع نموذجا ...» هو اشكالية تبحث في اشكالية ، اذا ما عرفنا الإشكالية بأنها " منظومة من العلاقات التي تنسجها داخل فكر معين مشاكل عديدة مترابطة لا تتوفر امكانية حلها منفردة ولا تقبل الحلّ من الناحية النظرية إلا في إطار حلّ عام يشملها جميعا " من هنا ، فان" التّصدي لهذه القضية يولّد في حدّ ذاته قضايا . وتحليل الظاهرة الواحدة يفضي الى رصد ظواهر متعددة إذا ما أدركنا أن العلاقة بين الخاص والعام متبادلة بحكم الأنساق التي تحكمها وتؤثر في مسار تبدّلها . وحتى لا نغرق في التجريد فان الوعي بالموضوع المطروح من جهة المنهج والمصطلح والاجراء ، مسألة في غاية الأهمية . ففي خصوص المنهج ، لا سبيل الى الحديث عن الحصار الثقافي بمعزل عن الحصار الاقتصادي والسياسي وأشكال الحصار الاخرى ، حتى وإن اقتضى سياق التحليل ذلك ، ولا مجال لعزل ظواهر هذا الحصار الثقافي ونتائجه عن أسبابه ومكوناته المتعينة في الواقع التاريخي ، ولا مناص من فهم ظاهرة الحصار الثقافي في شموليتها إلا بتفكيك مكونات العقل العربي وتمظهراتها في الجدل القائم بين المثقف وقضايا عصره مثل : قضية التحررّ والوحدة والنضال والتراث والتحديث ...(1)

أما في خصوص المصطلح ، فلا شك أنّ ألفاظًا من جنس "المثقف"و " الحصار" ، لا تحتاج الى تعريف (2) والرأي عندي أنّ أكثر الألفاظ صعوبة في الحدّ هي التي تبدو بالبداهة لا تقبل التعريف فمن فرط استعمالها توسعت الهوة بين الدّال الاصطلاحي والمدلول حتى ظن أنها من البديهيّات ..

### 1* في ماهية المثقف و وظائفه :

لا بد من التأكيد في هذا السياق ، أنّ المثقف الذي نعنيه ، مخصوص بأزمنة الحصار وله سمات المثقف المبدع فهو متأصل في ثقافة أمتّه وحضارتها وهو يؤمن بخصوصيته الوطنية مدركا هذه الخصوصيّة ، من لغة وتاريخ وحضارة وأدب ومعرفة ، معتزا بانتمائه ، مؤمنا بالاختلاف وحرية الرأي والمعتقد وحقوق الانسان ، مجسدا ذلك في أقواله وأفعاله ، له القدرة على النفاذ الى واقعه الذاتي والموضوعي والتعبير عنه بكافة الأشكال المتاحة باللغة والألوان و الألحان و الأداء الفني القولي و الجسدي و الركحي بواسطة التخييل و السرد و الحوار و التشكيل و المعمار و التعبير الصوتي و الموسيقى و له القدرة على الفهم الجدلي للإنسان و المجتمع و التاريخ والمحافظة على القيمة الجمالية لكل معنى ينتجه ، بحيث لا يسقط في النظرة الواحديةّ للفن أو المفاهيم المسقطة ايديولوجيا والمغلقة على ذاتها ، وهو عادة ما يكون على بينة من مشكلات التلقي وأساليبه إذ تكسبه الخبرة أدوات فنية وأساليب تعبيرية ترفع خطابه القولي أو الركحّي أو التشكيلي ، إلى مصاف التعبيرية الجمالية برموزها وحدود مجازها وتجنبها السردية السطحية واللغة الجوفاء المباشرة والتركيبات النظمية البلاغية المفرغة من كل معنى جمالي أو حس ابداعي . ولعّل من أخص خصائصه أن يكون ابداعه

*جامعي تونسّي

استشرافيا ينتج خطابا واعدا بالتحوّل والتغيير دون السقوط في وهم التنظير أو التنظير للوهم ، في عالم محفوف بتحديات ثقافية وسياسية و اجتماعية متنوعة لا حصر لمدارتها . وأيا كانت تسميات المثقف تنويريا أو عضويا أوتراثيا أوثوريا فانها كلها تنصب في فعل الإبداع (3) بما هو تغيير وتحديث وتثوير للواقع نفسه.

انّ الراصد لوضع المثقف العربي المبدع ، يلحظ أنه يعيش وضع هشاشة واحباط ، مرده اسباب يتعلق بعضها بمكوناته التاريخية وتركيبته المجتمعية وبعضها الآخر يبرز في تردده الوظيفي بين مختلف السلط المهيمنة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ودينيا حسب المفهوم المتعدد للسلطة عند فوكو ، فيصير و عيه الزّائف ، أساسا لتحديد مواقفه من القوى المعرقلة للتاريخ ، متخفيا وراء أقنعة لا حصر لها .(4)

ولست أنفي على المثقف المبدع أن يكون وطنيا ينخرط في قضايا قطره وأمته ، بل الواجب يملي عليه أن يكون كذلك واعيا بدوره متفطّنا الى خصوصيته في أي مجال يساهم فيه دون أن يتقوقع في برجه العاجي وينطوي عل فنّه وانتاجه انطواء مقيتا .

ولست أنكر عليه ثانيا أن يدافع عن الفئات الاجتماعية المسحوقة والشرائح المنبوذة والمهمّشة ، بل ان من أدواره أن يكون مناضلا من أجل الحق معبرًا عن انتمائه وفلسفته في الحياة والوجود والتاريخ ، رافعا لواء التغيير والثورة على الظلم والقهر والاستغلال الذي يعانيه أفراد المجتمع ولست أنكر عليه ثالثا أن يكون مساهما في حركة ثقافة أمتّه مادًا جسور التعاون مع الهيئات والمنظمات والجمعيات والمؤسسات العلمية من أجل خلق حوار أعمق وتبادل التجارب ، ولكن عليه أن يكون ناقدًا للظواهر المحنّطة والقيم المهترئة ، شجاعا في ابداء رأيه ، مستقلا بمواقفه مستأنسا بالاختلاف ، مستشرفا آفاق المستقبل فيما يبديه من آراء وأحكام .

ولست أنكر عليه رابعا أن يواكب متغيرات العصر التكنولوجي وأن يلتحم التحام العارف بحقوله المعرفية المعقدة . فلا شأن لنا اليوم في لعبة موازين القوى العالمية ، إن نحن لم نبحث عن سبل تطوير عقولنا وسلوكنا وأن نسعى الى ردم الهوة بيننا والآخر في مجال تقنيات الاتصال (5) ولكن لا يعني ذلك في كل الأحوال أن يترك المثقف المبدع قلمه وأوراقه وفرشاته ولوحته ، وما نحته بكدّ معاناته أو يهجر فضاءاته التعليمية والثقافية ومنابره الفكرية ومجالسه السجالية ومؤلفاته المكتوبة .بل عليه وهو في غمرة هذا الحصارالتكنولوجي وأوج احتداد أساليب غزوه أن يكون واعيا بوظيفته متمسكا بهويته كأشد ما يكون التمسك ، منشدًا الى خصوصيته الحضارية والثقافية والابداعية كأحسن مايكون الإنشداد، مدركا أنه في كل لحظة يمكن أن يتحوّل ، بحكم اغراءات هذه الانظمة وسرعة ايصالها الى قرص من أقراصها أو خطا من خطوط " انترناتها " اللاّمرئية .

## 2 * رهانات المثقف والتحديات التي يواجهها

إذا كان مفكرّو النهضة التنويريون وأدباؤها ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين قد ذادوا عن قضايا أو طانهم وأدركوا ما يحف بأمتهم العربية والاسلامية من مخاطر الجهل والفقر والتخلف والإستعمار وهيمنة العوائد الميتة والتقاليد الرجعية ، فأثار وا قضايا الحكم والعلم والحرب والسلم والإسلام والإيمان والمرأة والمجتمع والفقر والخصاصة ، وانتصروا للهوية وقيم العدل والحرية بأدواتهم التعبيرية المختلفة مهما كانت مواقعهم ومنابع رؤيتهم (إذا كان وضعهم كذلك) فإن المثقفين العضويين بمختلف مشاربهم و في ضوء متغيرات الواقع العربي وتعقيدات أوضاعه منذ الستينات ونظرا الى قصور أفق حركة التحرير الوطني وعجزها على تحقيق العدالة والديمقراطية والوحدة ، يواجهون تحدّيات عنيفة بحكم أنهم :

1) يجنون اليوم تبعات هذا القصور و العجز وإرثهما ، وليس مشهد مؤتمرات القمة العربية بكل مايندس فيها من تحالفات عرضية ومصلحية وازدواجيّة للخطاب

والممارسة إلاّ علامة بينة على إنتاج الخيانات المتجددة بإيعاز من قوى البطش والعدوان الامريكية وعملائها المباشرين والمقنعين.

2) انهم يواجهون غزوا ثقافيا واعلاميا لا مثيل له ، كمّا وكيفا ، من جهة وسائطه وأهدافه وأبعاده وقوة انتشاره وتأثيره على الشخصية والكيان والهوية وحرية الأوطان وثقافة وسلامة أجوائها .

فلم يعد الغزو بالأساطيل وجحافل الجنود وإنما بالغازات المبيدة وحرب الفيروسات المرسلة عن طريق وسائط الثقافة المعولمة والاعلام المسموع فضلا عن الأساليب الاخرى في التطبيع المقنع ونشر ثقافة الآخر وتسريبها في نظام اللباس والعوائد وإحياء نزعات التعصب وقضايا الأقليات وفسح المجال أمام الفكر الظلامي المغلق ، ونشر المخدرات والشذوذ على أوسع نطاق (6)…. انّها خطة امبريالية جديدة بوسائل مستحدثة تهدف الى القضاء على معالمنا الحضارية وأصولنا الثقافية وإبادة تراثنا ونشر نزعات الشك والخوف في نفوسنا ، وما مقدمات هذه الخطة المتكاملة إلا من العراق وفلسطين والسودان وليبيا وما خطوتها القادمة إلا في سائر بلدان العرب .

ألم تضر ب الطائرات الأمريكية والصهيونية مفاعل تموز في العراق : 1981/06/7، ومصنع الأدوية في السودان وموقع الفلسطينيين بحمام الشط في تونس و المواقع المدنية في ليبيا …(7) انهم يحاصرون المكان والذاكرة وآثار التقتيل والهمجية مازالت شاهدة .. ومهما حاولنا ان تكون لدينا روح المسيح وان نعيد غمد القاتل الى ترسه ، فنجالس قاتلينا في كامب ديفيد ومنتجعات أمريكا والشرق السحرية المسيّجية بأحدث أجهزة الاستخبار ، باسْمِ التطبيع والسلام ، فها هي الأيدي الملطخة بالعار والدم تعصف بشعب أعزل إلا من حجارته، وهاهي " راعية السلام "، تمارس عنجهيتها وتحاصر شعبا وتقتل أطفاله وشيوخه ضاربة عرض الحائط بكل اتفاقيات حقوق الانسان ..

وإذا كان المثقف التقدمي واجه في العقود الأولى من هذا القرن ، الإستعمار الاستيطاني المباشر وظلّ يتصدى في أواسط القرن الى الغزو الامبريالي ، فانه اليوم يعيش غزوا مزدوجا عبر أقمار التجسس وأنظمة المعلوماتية وحصار الارض والكيان …

انه حصار على كل الواجهات بشل القدرات وقتل الكفاءات واستنزاف الثروات وطمس الحضارات وحاصل القول : إن المثقف المناضل من أجل الحرية والانعتاق وحقوق الانسان وبناء مجتمع مدني ديمقراطي ، يعيش حصارا في الداخل والخارج ، في الداخل ممثلا في القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية ، التي بيدها الحل والعقد ، وهي عادة ماتكرس رؤاها المتطرفة فتلجم الخلق والفكر وتدعو إلى إقامة الحدّ على من فكر وأبدع (8) ….

في الخارج ، ممثلا في الغزو الثقافي ، والغزو الاستعماري الجديد ، عن طريق الحصار ، وما ينتج عنهما من تفكيك للهويات وقتل للملكات ودوس لإنسانية الإنسان وكرامته ، وتمزيق لروابطه المجتمعية والتاريخية .

### 3* المثقف المبدع (9) وخطاب الحصار

ان الحصار الذي يعانيه المثقف ، والمثقف المبدع من خلال كتاباته متعدد الأوْجُهِ ، متنوع الألوان والأشكال والأزمنة ، وتبعا لسمات المثقف المبدع كما أشرنا اليها في مقدمات هذا المبحث فانه يكون أكثر الفئات المثقفة قدرة على التعبير عن مشكلات عصره بصيغ وطنية ، جمالية وتأثيرية لأنه يملك أدوات الفن الممكنة من شعرية أو سردية أو جمالية فنية في مختلف أجناس الابداع التي تتيح له قدرا كبيرا من تفجير قلقه ووجعه وتأملاته ، ويفضي به هذا الو ضع الوجودي في كثير من الأحيان الى استشراف الآتي ، عن طريق الإشارات الموحية باستخدام تقنيات الترميز والايحاء .

ان المتتبع لأعمال المبدعين العرب الذين أنتجوا نصوصا

تشغل بمشكلات الواقع العربي التاريخية والسياسية ، يكتشف كثافة هذه الأعمال وقدرتها على اختراق الصمت العربي والإيديولوجيات الرسمية ، ولا يمكن للباحث حصر هذه الأعمال في مثل هذا المجال الضيق ... وهو عمل بحثي يمكن أن ينتج خارج هذا السياق ... ولكن يمكن الاقتصار في هذا المجال على ما يصطلح عليه بالخطاب الميتالساني أي الخطاب على الخطاب الذي يصرح به المبدع في شكل مقالات أو في اطار حوارات ، ففيه يكون متجردامن الرموز معبرا عن موقفه الصريح مما يعانيه من أشكال الحصار في لغة لا تخلو من الانفعال الحقيقي والتفاعل البناء من أجل صياغة وطن أجمل ، وربطا بما سبق تحليله في مدار النظر والرصد لاشكال الحصار الداخلي والخارجي ، نلاحظ ان المثقف العربي المبدع في أزمنة الحصار المختلفة يعاني من احباط فجائعي ، يعبر عن مأساوية واعية بشروطها التاريخية تصدر عن حس شفيف وتأملات موغلة في المشهد التاريخي والتحام وجداني بقضايا شعبه وامته استنطاقا لتجربته الثقافية الخاصة وموقعه من مجمل التناقضات والصراعات واستبطانا لموقف فكري وجمالي من الإنسان والوجود والتاريخ .

ولمقاربة صورة هذا الاحباط ومعانيه القصية وتعبيراته المختلفة الثاوية فيه ، من أجل كسر الحصارات وتقويض أسيجتها ، رأيت أن أقتصر على ثلاث شهادات لمبدعين ، عرب تنشأ في وضع الحصار الذي عاناه ويعانيه الشعب العربي على لسان بعض مثقفيه المبدعين ولا شك ان هذا الخطاب وإن بدا مثقلا بحمولة إنشائية ، فهو ينطوي على رصيد تأملي وعقلاني قد يتقاطع في أكثر الاحيان مع خطاب أهل الرأي والفكر والفلسفة والعقيدة بل يكسر نسقية الخطاب الموغل في العقلانية السجالية ليؤسس خطاب العقل العملي المبدع مع ما يتيح نوع هذا الخطاب رغم عنفه ودرامية مبانيه ومعانيه من ايقاع تطهير ي يغسل ذات المثقف نفسه مما علق به من أدران الواقع والتاريخ .

**4 * نماذج من شهادات**

اخترت " لنمذجة " واقع الثقافة المحاصرة في أزمنتها المتعددة ، ثلاثة نصوص مختلفة لمبدعين ثلاثة شعرا وسردا ومسرحا . ونظرا الى طول هذه النصوص فقد اقتصرت على شذرات منها كافية على ما أظنّ لوصف الحال وبيان ألوان الحصار ...

الشهادة الاولى للشاعر الفلسطيني محمود درويش وردت في كتاب عنوانه : في وصف حالتنا وهي مقالات مختارة للشاعر كتبت بين 1975و 1985في حصار بيروت وحصار المخيمات الفلسطينية . يقول الشاعر في مقال : " الارهاب الأسود"

" إنّه زمن الارهاب " ، ارهاب يميني ولو وقف على يسار الضحية ، ارهاب أصيل عروبي نابع من ذواتنا غير مستورد ،مستتر خلف حجاب رغم انه ذكر ويصلي خمس مرات في اليوم إذا شئتم ، تقي أصولي يقطع اليد الممتدة الى الرغيف والحرف بحدّ السيف ، وفق الشريعة ،وأحيانا متمدن ، يستخدم أرقى أدوات التعذيب البشري ومراقبة الأحلام على الشاطىء . وسري ليجعلك القاتل والقتيل ، في جسد واحد . وعلني: كمنشآت النفط التي تجتاح القيم ، وكصحف هذه الايام ، وكشاشة التلفزيون التي لا يغادرها وجه الحاكم الذي ألغى الفكاهة ، وجاهل : يكره الكتابة والصحافة ، فيشتريها ويرميها في المرحاض . ومثقف : يعلن أن الحروب الوطنية والأهلية هامشية لا تدخل في الجوهر ، وشاعر يضع السحر والشعوذة بديلا للعرفة العلمية ، ويحدّد التناقض الرئيسي بين حنجرة الشاعر وخصر الرّاقصة . وديمقراطي يعدّد أسماءه يحدّد جوهره ثم يوحد صورته حين يعمّ الاجتهاد العيون . وفاشي لا يتقن المهنة ، فلا يبني ولا يحارب إلا الفقراء واشتراكي : ولكن طبيعة الإنسان التي يتنازعها الخير والشر هي العائق ولأن التناقض الرئيسي بين الإنسان والله . انه الارهاب الأسود ..." (ص8و9)

الشهادة الثانية ، هي للكاتب المسرحي السوري " سعد الله ونوس" في مقال له عنوانه :

" أنا الجنازة والمشيعون " صدر في جريدة السفير بتاريخ 1978/10/19 و نشر في كتاب " هوامش ثقافية " دار الاداب ط 2( 1992) ص 225*229 .

يقول و نوس كاشفا سؤال الحصار المدبر والمدّمر الذي يعيشه المثقف : " من لساني المقطوع بدأت الهزيمة . وانطلقت الجنازة ، من لائي المقموعة على امتداد الوطن العربي نفذ العدو والانفصال والفقر والجوع والسجن والجلاد والإنهيار العربي المعاصر .

لولا لائي المصادرة والملجومة لما تكسرت لاءات الخرطوم وآنطمر هشيمها في كثبان سيناء ولما استطاع رجل واحد كالسادات أن يوجه هذه الضربات المهلكة للمصير العربي ، ولولالائي المصادرة والملجومة لما كنت المكوك الذي حاك به كيسنجر كفني ، ولما مزقني الرصاص والدمار طوال أربع سنوات في بيروت ولما تفتّت الارض تحت قدمي وتشظت الى كيانات هي الأخرى ستتشظى الى كيانات اقليمية جديدة كلها مسيجة بالعداوات والنزاعات وتأشيرات المرور المستحيلة ...بختصار لولالائي المصادرة والملجومة ما كان نصفي في التابوت ونصفي الآخر يجرجر وراء الأذيال ومصادرة لائي لم تجعلني الضحية والمتفرج ، الجنازة والمشيّع فقط ، بل ورطتني بالتواطؤ...»

الشهادة الثالثة ، وهي شهادة دامية من وحي الوقائع اليومية لحصار العراق الصامد ، تقطر وجعا وتدين كل الأطراف في هذا الزمن المعولم . وهذه الشهادة هي للكاتبة العراقية لطيفة الدّليمي وردت بمجلة الأقلام العدد4 (1998) نقتطف منها هذه الشذرة الواردة بالصفحة(43) :

" الكتابة كتابتنا ، كتابتي تتم الآن في عراء الوجع ، العراء الذي يعبق بروائح الموت وتتم في فضاء ينبت نصال التهديد في كل لحظة ، نكتب ونحن نتلظى في الحصر والكتابات ، ونتصدّى لكثير من الغوايات التي تغازل عوز الكثيرين منا في محاولة استبدال الروح الى النعيم الموهوم شخصا في الدرجة الثالثة في مخيمّات اللجوء والتسوّل . أليس هذا عارنا الجديد عار هذا الزمن المعولم نكتب هنا ، لدرء هذا الحصار ونخوض آخر المجازفات للخروج على نصوصنا وأساليبنا ، فهذا الزمن يتطلّب نصّا مكافئا لغرائبه واتساع كوارثه ..

.. نعم اننا جميعا نكتب وأكتب وأجازف لأبقى أوأموت وأشكل مشرق نصوصي من كل ما يحيط بي من تفاصيل الغرابة حيث ينهض أمامنا فيض هائل من الموضوعات النابضة الحيوية الدموية المأساوية ..نحن الآن في الكتابة أبطال ساخرون وضحايا مستغرقة في تفحّص الفاجعة والحفر عن جوهر الأمل ... نهزأ من العقائد الكبرى المتساقطة والنّصوص البليدة التي تمجد الحرب ونعدّ على الأصابع المتبقية الإنتهاكات اليومية لحياتنا وهويانتا العربية في كل بلاد العرب ونعيش مجد الحب الذي نصارع به عواصف القمامة ومؤامرات الخراب.

بهذه النبرة الشعرية الفجائعية الرّافضة، يطفو النصّ الابداعي العربي ضمن شتات النصوص في كافة الأجناس شعراء و سردا و مسرحا وألوانا وألحانا ، مسكونا بالدمار يتجلى في اللغة والصور ومجازات الوجع وبلاغة الروح وزيف الزمن وحصار الذاكرة .

يتجلى الزمن العربي ، مشدودا الى جوهر مأساته ودمويته، يصنعه مسرح القسوة الغرائبي ، الذي لم يكتبه " أرتو " ولم يدوّنه في الذاكرة دوي رصاصة " خليل حاوي" في الجمجمة العربية يوم أطلقها محتجا على نفاذ ذخيرة المثقف المبدع في حرب غير متكافئة .

بين النصوص الثلاثة ، وماهي إلا شذرات مقطوعة عن سياقها الحميمي ، ألفة الأوجاع وصدى الهزائم وأنين الموت الأصفر وتداعيات أزمنة الوقيعة من حصار بيروت الى حصار العراق وبينهما فلسطين ، ومن حصار اللسان والقلم والألحان الى حصار أغاريد الطير ووشوشات

الحمام ونبض الطفولة واغتيال السماء وتعكير صفوة الماء وابادة سحر ذاكرة الأوطان . تتبدى المشاهد متآلفة والنصوص متعانقة وطقس الدمار والتدمير واحد ، ومسلسل الخنق والإختناق لا ينقضي، كأن قدر الذات المبدعة : أن تظل تجمع أشلاءها وتلملم شظاياها ، أن تكون معذبة اللسان والجنان وأن يكون شوقها للنار المقدسة مسيجا بعتمة الليل ووحشة المدن في تقاطع الريح وعذبات القمر الأبدي :

من عذاب المثقف المعمّد بالمسرح في حال ونوس ينخره "سرطان " الأمة ، ويحيله في زمن " الجوع الى الحوار" الى كائن " مونودرامي " يعلق أحزانه في لهجة ترشح باليأس والقلق والأرق ، مشيّعا ذاته قبل أوان رحيلها ، يستعجلها الكتابة ليقاوم موت الجسد - الوطن -النصّ ، ليعلن أن الكاتب العربي - المثقف المبدع - لا يموت إلا على جناح الفردوس المفقود على صخرة نائية بلا خبز ولا نبيذ ولا حنجرة ، على سرير الإبر وبقايا حبر قديم مثلما حصل للسيّاب وأمل دنقل وغسان كنفاني ومعين بسيسو وناجي العلي والياس مرقص وخليل حاوي وحسين مروة والشيخ امام ...

وغيرهم لا حصر لهم ، أنسانا الزمن المحاصر أسماءهم وألوان عيونهم وأشكال خطوطهم وتضاريس أناملهم ونغمات أصواتهم. هذا المبدع الساحر أدرك أنّ حصار المثقف وقطع اللسان هزيمة هو ضحيتها والمتفرج عليها والمتواطؤ في فعلها .

وتدور بنا النصوص محورها الوجع -في حالة درويش - الذي يجيبنا كغيمة انفلتت من سربها ، مثقلا بالشجو ورائحة الزعتر وأسرار الاكتمال في الأشياء ... شاعر صار يريد ما لا يرى لأنه يرى ما لا يريد ، على نخب العواصف والانتفاضات التي تجدد دماءها وتعلن رفضها لتجارة التسوية والموائد الحاقدة يعلن التباس مشهد المثقفين في زمن الحصار ، فيختلط الجاهل بالعالم والحاكم بالمحكوم والقامع بالمقموع ، ويصير القا تل والمقتول في جسد واحد ، هناك يتشكل المشهد السريالي في غرائبية انصهار الجاهل بالمثقف بالشاعر بالفاشى بالاشتراكي ، عبر توليف وقائعية الارهاب الأسود ...انه الحصار في أعتى لحظاته.

لا تتوقف العورة عن الدوران فينبثق وجع سردي من خلال نموذج المبدع العراقي المحاصر ، إذ تتعطل لغة الشعر ( الدرويشي ) ولغة الحوار في المسرح الونوسي ، ونصير جزءًا من مسرح لم نعد نفرق فيه بين الدرامي والملحمي ، إذ صرنا نحصي الضحايا والمذنبين ،والقتلة والمقتولين مادام طعم الخبز صار ر مادا وطعم الأشجار صار حطاما وما دام للجثث سيقان تبيع الثلج في قيظ الحروب ، وما دام الكساح والتسول قد حطا على أغصان المرجان . بهذا الإيقاع الدامي و بحشرجات الحياة في الصمود حدّ الفناء ، ينسج الكاتب العراقيّ الواقف على تخوم المعجزة ليكتب بما تبقى له من أوراق الزيتون وسعف النخيل ، أسطورة عذاب "أبويّ" وجراحات بروميثيوس وسريالية المواقف العربية الرسمية ، وهكذا يخط الفنان المثقف المبدع على نعوش الأطفال رسالة مصالحة مع الأحزان ، ما دام يعي أن فرحه قادم ، وأن العتمة لا تخفي مسارب الضوء .. إنّ اللغة الواصفة في هذه النصوص وأمثالها في مدوّنة الثقافة المبدعة والمناضلة تخترق عالم الظاهر وتختفي برجعها القصيّ ووعيها الفاجع بتفاصيل ما يدور داخل القضبان - قضبان الذات و الوطن و التاريخ -

انّ هذه الكتابات لا تقتصر على الإخبار فحسب ، انما تفسر فعل تعبيرها وتغييرها في نفس الوقت احتجاجا على انتهاك حرمة الرّوح والذات والحلم . لهذا تنوعت أساليب التعبير والإبداع في أزمنة الحصار العربي كاشفة عن اغتصاب الزمن الرّابض في أعماقنا ، وسبي أمكنة الذاكرة ... ولا شك فإن المثقف المبدع -فيما أرى - خارج دائرة ما ينهال علينا من غث النصوص والأعمال ، هو الأقدر من خلية المثقفين ، على أن يشعل النار

الباردة ويستكشف تعاريج الزمن المخاتل ، لانه يملك القدرة على الإفصاح بما لا يُفصح عنه ، لانه مهوس بالتغيير لا الاعادة والتماثل والتكرير / لأنه يستشرف الآتي والسريّ بحس رهيف ، لأنه يؤمن أن جوهر التاريخ هو الانسان التواق الى حرية والعدالة والأمان /لأنه يختزن الرّصيد المضني من تاريخ أمته وابداعها النضالي، لأنه يقرأ بعين واعية وفكر ثاقب وحس عميق تراث الانسانية وآدابها وفنونها ومعارفها وعلومها / لأنه قادر على صهر كل هذه الأبعاد والأزمنة ، فهو الجدير بأن يهجس برؤاه خارج كل تنميط ساذج أو تسطيح أو تلفيق أو اقصاء أو اغتراب ... أو اسقاط ، انه جوهر ما يبدع .../

****

على هذا الأساس يقف النص المبدع في مواجهة الحصار المعلن والمتخفي صامد ا، مقاوما لأنه يملك القدرة على المخاتلة والمراوغة بواسطة الترميز و الايحاء والتورية وبلاغة التعرية .

وإذا كان المثقف هو ضمير الأمة ونسغها الحيّ ، فانه لا يمكن أن يكون كذلك ، إلا إذا امتلك الحرية والحماسة والاصرار على انتهاج سبل الجدّة فيما يكتب والنهل من ثقافة أمته وتراثها وثقافة الانسانية على السواء ، فهو بهذا المعنى يحافظ على أبعاده الحضارية وهويته الثقافية ومجاله الانساني . وإذا أردنا التخصيص قلنا : ان الثقافة العربية عموما ، تعاني اليوم بكافة صيغها وتعبيراتها الفكرية والأدبية والفنية:

1) من أشكال الانحباس والقطيعة مع الواقع التاريخي بين منظوماتها وداخل المنظومة الواحدة نظرا الى غياب الجدل البناء والرؤى الفاعلة بين المفكرين والأدباء وسار الفنانين في ثقافة الصورة وفنون التشكيل .

2) هيمنة أسلوب المهاترات والصراعات الجوفاء في أغلب الصحف والدوريات ، بفعل غياب النظرة النقدية المتفحصة والشاملة ، والسقوط في معترك الايديولوجي أو الرؤى الاقليمية الضيقة أو المركبات الشخصية .

3) بروز فئة من المثقفين مسكونة بهاجس اقصاء الآخر وعدم قبول الاختلاف والإيمان الأعمى بمنطق السكونية والثبات .

4) انكفاء بعض المثقفين على أنفسهم وعدم المساهمة في الفعل الثقافي العام والاعتقاد أن حرّية المثقف المبدع لا تصان إلا بالانزواء و الا نطواء .

5) ميل بعض المثقفين الى مسايرة الثقافة السائدة في برامجها ، والانطواء تحت مقولاتها دون السعي الى بناء الثقافة الوطنية البديل .

6) غياب البرامج الاستراتيجيّة المحكمة ، لتذويب القطيعة بين الأدباء والمفكرين في القطر الواحد ، وبين سائر الأقطار العربية مغربا ومشرقا.

إن بناء التواصل الحقيقي بين المثقفين والوعي البناء بوظائف المثقف ، والتحدّيات الكبرى التي يواجهها في زمن العولمة وتشييء الانسان وتوثينه وانتهاك حرمة تاريخه ، يدفعه وبإلحاح الى شحذ عزيمته واستنفار قواه لمقاومة أشكال الهيمنة والتطبيع ، والنضال من أجل الحرية والديمقراطية والمجتمع المدني ، وكسر أشكال الحصار الجائر المضروب على العراق وفلسطين.

**(1) الإحالات**

لا يمكن حصر المؤلفات التي اهتمت باشكاليات الفكر العربي ومكوناته والقضايا المتعلقة به ويمكن على سبيل المثال العودة إلى مؤلفات محمد عابد الجابري ومحمد أركون وعبد الله العروي والطيب التيزيني ومحمود أمين العالم وعلي حرب وأبو يعرب المرزوقي و هشام جعيط وغيرهم فرغم اختلاف مناهجهم ( المنهج التفكيكي ، المنهج الابيستمي، المنهج المادي التاريخي ، المنهج الفلسفي ، المنهج التاريخاني ...) والسجال الحاصل بينهم حدّ الأختلاف الصريح ، والصراع البين ، فقد سعوا الى تحليل عوامل تخلف الفكر العربي حديثا والوقوف على الاسباب العميقة الكامنة في العقل العربي ذاته أو في

شروط تفكيره أو في السياقات المعرفية والتاريخية والدينية التي يتنزل فيها .

(2) عرّف المثقف من وجهات مختلفة ، سوسيولوجية وفلسفية وتاريخية ونفسيّة وابداعية ومقارنية . وهناك اقرار بصعوبة التعريف والتصنيف ، لأن تعريف المثقف يتعلق بالسياقات الثقافية والحضارية والمجتمعية والسياسية ومن هذه المحاولات نذكر : ماسعى اليه د. الطّاهر لبيب من تحديد الفروق بين " العالم والمثقف والانتلجنسي" هو عنوان بمقال له بمجلة الوحدة ( السنة الرابعة العدد 40كانون الثاني 1988) والمقاربات التي أنجزها الجامعي التونسي البشير العربي في كتابه مقاربات سوسيولوجية في الثقافة والتنمية و المجتمع (دار سحر للنشر 1998) يقول في فصل تعريف المثقف ص 27" باعتبار أن المثقف يحدد حسب وظيفته الاجتماعية المباشرة التي يقوم بها على أرض الواقع فهو بالتالي صانع الأفكار ويمكن ان يشمل كل من يكسبه نشاطه الفكري مكانة وظيفية ضمن علاقات اجتماعية في فترة تاريخية معينة سواء كان فنانا أو كاتبا أو طبيبا أو معلما أو سياسيا أو اداريا ..".

ومن فصل المثقف العربي والمستقبل ( ص 129) من كتاب مقدمات لدراسة المجتمع العربي ( ط،2، 1975 الدار المتحدة للنشر ) يذهب د هشام شرابي الى القول ان المثقف ليس من أحسن القراءة والكتابة أو من حصل على شهادة علمية بل ان ما يميز المثقف في المجتمع صفتان : الوعي الاجتماعي الذي يمكّن الفرد من رؤية المجتمع وقضاياه من زاوية شاملة ومن تحليل هذه القضايا على مستوى نظري متماسك . والدور الاجتماعي الذي يمكن أن يلعبه بالاضافة الى القدرات الخاصة التي يضفيها عليه اختصاصه المهني أو كفاياته الفكرية ..."

وانطلاقا من هنا يصنف المثقفين الى أربع فئات :

(1) المثقفون الملتزمون : أولئك الذين يتطابق عندهم الفكر والممارسة ...وتشكل هذه الفئة الأقلية الضئيلة بين المثقفين .

(2) أهل العلم من الأدباء والكتّاب والمفكرين العاملين اجتماعيا بالكلمة لا بالممارسة المباشرة .

(3) العاملون في حقل التثقيف والتعليم من الاساتذة والمعلمين

(4) فئة المهنيين أي من الأخصائيين والتكنوقراطين العاملين في الحقول العلمية والصناعية والإدارية المختلفة .

والواقع أن تسميات المثقف عديدة حسب المرجعيات (الماركسية وغيرها ) فقد قسّم غرامشي في أدبياته ، أنظر

المثقف الى نوعين ، المثقف العضوي والمثقف التقليدي حسب موقعه ووظيفته وتأثره بعلاقات الانتاج وخدمته للكتلة التاريخية الصاعدة ، أو انخراطه في السلطة السائدة أو الزائلة المثبتة الى كتلة تاريخية تقليدية .

وعلى هذا النهج وسواه ، سعى المفكرون العرب الى تنميط المثقفين وتعيين أدوارهم في المراحل التاريخية المختلفة ، ويمكن العودة في هذا السياق ، الى مقال محمد أركون ترجمة هاشم صالح المعنون " بعض مهام المثقف العربي اليوم " والوارد بمجلة الوحدة، السنة السادسة العدد 66 آذار مارس 1990إذا يقول هذا المفكر " الشيء الذي نجم في الساحة الثقافية العربية والإسلامية منذ القرن التاسع عشر ، هو ظهور المثقفين النقديين الذين درسوا في الغرب ، وقد كانت هناك عدة مراحل . فهناك أولا ، مرحلة المثقفين الليبراليين (1920*1952). ثم مرحلة المثقفين الثوريين (1952*1970) ثم الثوريين الاسلاميين ( بعد عام 79)

3) أيا كانت التصنيفات، فإنها تكشف نظريا، عن الدورالفعال الذي يجب أن يضطلع به المثقف الطليعي أو الثوري أو العفوي أو الانتلجنسي، ولعل كل هذه التسميات وما يقابلها ، يعكس رؤية المحلل الايديولوجية ، لذلك يعسر فصل هذه التسميات عن سياقها ... ففي حديثه عن النهضة يطلق محمد عابد الجابري مصطلح المثقف

النهضوي ( أنظر كتابه : اشكالية الفكر العربي المعاصر ، الدار البيضاء 1989ص80) .

4) عبّر عن ذلك محمود أمين العالم في كتابه " الوعي و الوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر " دار الثقافة الجديدة 1986ص 104 بقوله :« كما اننا نجد بين المثقفين العرب من جعلوا أنفسهم أبواقا للفكر الرجعي بل الصهيوني الامبريالي ، بعضهم يعبّر عن هذا بوعي جهير وبعضهم بوعي أو بغير وعي ، يحقق الأمر نفسه، متخفيا وراء ضباب من التعصب الديني أوالتعصب القومي ، أو وراء مناهج وأساليب مختلفة من الفكر اللاّعقلاني أو اللاتاريخي أو البراجماتي أو الإنتهازي أو التبريري أو التوفيقي أو الانتقائي، التي قد تتعارض مع المفاهيم والمواقف الامبريالية و الصهيونة الرجعية شكلا ، وان تلاقت معها ، بل قامت بترسيخها عملا "

5) يؤ كد هذا الموقف الباحث المغربي الأستاذ سالم يفوت في مقال له بعنوان " التجديد العلمي ومأزق التبعية " ص 34 الوارد بمجلة الوحدة السنة الثامنة العدد 92 ايار (مايو) 1992 يقول " انّ دور العلوم في النهوض بالمجتمع لا يقلّ أهّمية عن دور المجتمع في تطوير العلوم والتكنولوجيا ، في تغيير المجتمع بصفة مباشرة أو غير مباشرة ".

يمكن الرّجوع الى الكثير من المؤلفات والمقالات التي اهتمت بالثورة التكنولوجية الثالثة التي تعتمد على " الالكترونيات الدقيقة ، والكومبيوتر ، وتوليد المعلومات وتنظيمها واختزانها واستردادها وتوصيلها بسرعة متناهية ".

( أنظر مقال جورج المصري بمجلة الوحدة السنة9 العدد 98(1992) .

6) أنظر مقال كاظم جهاد " من نقد الحداثة الى ما بعد الحداثة " مجلة الكرمل عدد 52 صيف 1997 يقول ص 169:

" ومنذ سنوات عديدة بدأت المعلومات وأجهزتها ، تتعرض بالفعل لنشاطات " قرصنة " معلوماتية وتجسس ، أو تسلل الكتروني ، وتلويث جرثومي وما اليه (ويمكن في هذا المضمار ، تصور مدى التعاون المعلوماتي الممكن أيضا ، بدءا بالحواسب البسيطة وانتهاء بالاقمار الصناعية في لحظات الاستنفار الجماعي الكبرى ، كما حدث في حرب الخليج ..."

7) لمزيد التوسع في هذا الموضوع ، يمكن العودة على سبيل الذكر ، الى مقال الباحث جورج المصري ، عنوانه: الارهاب في النظام الدولي الجديد ( النموذج الامريكي) مجلة الوحدة العدد 98(1992) يقول صاحب المقال : ص119" إن الحملة الحالية التي تشنها الولايات المتحدة الأمريكية ضد ليبيا بدعو ى تفجير طائرة بان الامريكية ، تعيد الى الأذهان وقائع حملتها في ربيع 1986 والتي انتهت بقيامها بغارة جوية ضد طرابلس ..."

8) يمكن استعراض حالات لا حصر لها ، صدرت عن بعض التيارات الأصولية المتطرفة ، ضد المثقفين والمبدعين والاعلاميين ، بدءا من فرج فودة ، مرورا بنجيب محفوظ ونصر أبو زيد ورجال الابداع والثقافة و الاعلام في الجزائر ، وصولا الى قضية الروائي حيدر حيدر في روايته " وليمة لأعشاب البحر "

9) يعرف محمد عابد الجابري الابداع في كتابه " اشكاليات الفكر العربي " ص41 بقوله يتلون معنى " ابداع " بلون الحقل الايديولوجي الذي تستعمل فيه . ففي الحقل الديني والميتافيزيقي تعني كلمة ابداع ، سواء في الإسلام أو في المسيحية أوفي اليهودية ، أو في الفلسفة المرتبطة بهذه الأديان ، الخلق من عدم ... أماّ في الحقول المعرفية الاخرى ، كالفن والفلسفة والعلم ، فالإبداع لا يعني الخلق من عدم ، بل انشاء شيء جديد، انطلاقا من التّعامل مع شيء أو أشياء قديمة ... وبعبارة أخرى ان الابداع في مجال الفكر النظري عامة . هو تدشين قراة جديدة أصيلة لموضوعات قديمة، ولكن متجددّة.

# قراءة في تفاصيل يوميّات الحصار لعاصمة عربيّة في نهاية القرن العشرين

## «آه يا بيروت» للكاتب الفلسطيني رشاد أبو شاور نموذجا

ابراهيم درغوثي *

**على سبيل المقدّمة :**

هذه مقالة للذّكرى، لأنّ حصار بيروت مرّ عليه الآن حوالي عشرون سنة، ولكن تداعيات هذا الحصار مازالت ماثلة أمام الأعين التّي تبصر والعقول التّي تفكّر.

هذه مقالة من قبيل «وذكّر...» لأنّ تتار القرن العشرين الذين تجرأوا سنة اثنين وثمانين وحاصروا أوّل عاصمة عربيّة في التّاريخ المعاصر مازالوا كما عهدناهم يتلذّذون بعذاب الآخرين ويطربون لموت الأغيار.

إنّ شعبنا الذّي عانى في القديم من حصار التّتار والمغول والصّليبيين والإسبنيول والبرتغاليّين والفرنسيين والإنجليز مازال يعاني من الإستعمار البغيض في شكله الأمريكاني وماعاشته ليبيا والسّودان وما يعيشه الشّعب العراقي الشّقيق حاليّا من حصار بغيض على أرضه وجوّه وبحره منذ عشرة أعوام بقرارات جائرة من الولايات المتّحدة السّاعية إلى خلق عالم يركع لها مسبّحا بحمدها وشكرها آناء اللّيل وأطراف النّهار، إلا دليل على أنّ هذا العالم وصل إلى حدّ الجنون المطبق الذّي سيقوده إلى فنائه لا محالة. إنّ شعبنا الفلسطيني الذّي حاصرته آلة الدّمار الصّهيوني في بيروت سنة 1982مازال يعيش ويلات هذا الحصار إلى اليوم، في الضفّة الغربية وقطاع غزّة، ومازال يدفع ثمن هذا الحصار غاليا من عرقه وماله ودمه مضحيّا بفلذات الأكباد في إنتفاضة لن تكتفي هذه المرة باتفاقيات على شاكلة «أريحا أولا» لأن معركتنا مع هذا العدوّ هي أوّلا وأخيرا معركة مصير وشخصيّا لا أظنّ أنّ أرض فلسطين قادرة على استيعاب كلّ الحالمين بالمنّ والسّلوى في أرض الميعاد.

اختار الصّهاينة لاجتياح لبنان عام إثنان وثمانون يومهم. اختاروا يوم 5 حزيران/جوان. هذا التّاريخ الرّمز لهم ولنا ليدخلوا الجنوب يصحبهم الموت والدّمار ولم يقف في وجه آلة حربهم جيش القبّعات الزّرقاء. اختار جنوده وضبّاطه السّلامة وفتحوا البوّابات لدبّابات الميركافا وراجمات الصّواريخ والمدافع الثّقيلة ولثمانين ألف من جنود ربّ الجنود. ولم يغلقوا السّماء في وجه طائرات الفانتوم والكفير والقنابل الطّنّانة وأزيز الرّصاص.

وحده الشّبل الفلسطيني عرّى صدره لزخّات الرّشاشات ولم يهرب من المخيّمات «ما يحرث الأرض غير عجولها» و «ما حكّ جلدك مثل ظفرك» ويا أيّها الرّيح الأصفر من يقف في وجهك؟ منْ يعاكسك؟.

اندفع جيش الربّ «يهوه» طامعا في حرب نظيفة.5 حزيران جديدة ليحاصر في اليوم الأوّل مدينتي صور وصيدا وليقطع عن الفدائيين المتمترسين في الجنوب طريق بيروت.

قصف جنود ربّ الجنود كلّ شيء يتحرّك إلى أن حوّلوا المخيّمات إلى أكداس من الحجارة والقتلى وعيونهم على بيروت. لا يهمّ أن تحترق دبّاباتهم بقذائف الآربي جي أو بأجساد الأشبال الملغومة. ولا يهمّ أن يموت جنود جيش الدّفاع وأن تبتر سيقان الضّباط فمهر الجميلة غال.

وليصمد مخيّم «الرّشيدية» ما شاء له الصّمود فقلعة

* كاتب تونسي

الشّقيف سلّمها بيغن إلى صديقه سعد حدّاد وهو يقرأ من أسفار التّوراة وعد الربّ لشعبه المختار بأنّه أورثهم الأرض ومن عليها. وها هي الأسطورة تتحقّق، تصبح عين الحقيقة. وها هو الوهم يصير انتصارات تمشي على الأرض بخيلاء ملايين الطّواويس. لا يهمّ أن تنشر صحيفة «عال همشار» على صفحاتها الأولى صورا للضبّاط الذّين ماتوا تحت أسوار القلعة فهاهم يبتسمون للموت إبتسامات كالزّهور الصّفراء. وبيغن يشدّ على يد سعد حدّاد وعدسات الكاميرات تشتعل والصّور تطير في الفضاء لتجوب العالم ثمّ لتحطّ داخل بيوت العرب العاربة والمستعربة. عرب كالرّوم أو يزيدون قليلا. سمعوا بالحرب من على شاشات التّلفزيون فضربوا على صدورهم متفجّعين لاطمين: مالنا ولحزيران هذا؟ هذا الشّهر عارنا! ياعارنا الأبدي! وخطبوا في التّلفزيون وهم بين شامت متشفّ فيمن فوّت على نفسه وعلى شعبه معاهدة السلام في «كامب ديفيد» وبين داع إلى الصّمود والتصدّي والتّلفزات العربيّة على طول هذا الوطن وعرضه تبثّ رقصة البطن العارية ودمعة العاشقة وتفجّع المحبوب في المسلسلات التي لا تنتهي إلاّ لتبدأ من جديد.

يا عارنا الأبدي!.

هل يكفي أن يصمد رجال العقيد «عبد الله صيّام» والقائد «بلال» لترتفع معنويات الرّجال الصّابرين تحت لهيب الطّائرات التي أرسلتها خصيّصا أمريكا ريغن هديّة للولد المهجّر من الجنوب والبنت الخارجة لتوّها من حنّة العروس.

هل يكفي أن يقف خمسون ألف فلسطيني أمام البحر بدون ماء ولا طعام في يوم هو أطول من قرن لترفع هذه الأمّة رأسها.

ويأتي الجواب من الجبل. ياوحدنا. ياوحدنا

مرّ الصّهاينة من الجبل! ما كنّا نظنّ أنهم قادرين على المرور من هنالك بهذه السّهولة. يا جبل لبنان عالي... عالي... وتذكّرنا أنّ كمال جنبلاط مات مغتالا قبل قليل. فهل وقّت الصّهاينة كلّ شيء ليسهّلوا مرورهم قريبا من صخور الجبل العالي؟

وسكت بقيّة رجال الحركة الوطنيّة وأغلقوا مخازن السّلاح في وجه الغاضب واليد الممدودة للحرب.

هل يكفي أن يحاور ضبّاط من الطّائفة الدّرزية المقيمة في فلسطين ضبّاط من دروز لبنان لتفتح بيروت ذراعيها لبيغن وشارون؟

ما أسهل المؤامرة؟

أغمضوا أعينكم وكمّموا الكلاب حتّى لا تنبح في وجوهنا وسنمرّ سريعا ولن ترنا سوى عيون ربّ الجنود. وربّ الجنود ربّنا.

ومرّوا بسلام من الجهة الأخرى من خلف ظهورنا بعد أن ردّتهم المقاومة من «خلدة» فهم يريدون حربا بلا قتلى في صفوفهم. حربا بتعب قليل ودم قليل وخسائر قليلة.

وهاهي بيروت الشّرقية تشرع لهم أبوابهم بلا قيد ولاشرط، وتناديهم بالزّغاريد. وبشير الجميّل أخرج جميلاته إلى الشّوارع يترقّبن الجيش الذّي سينقذ العرب من العرب. ووصلت حاملات الجنود ذات النّجمة السّداسيّة الزّرقاء فوجدت جميلات «الشّرقية» في الإنتظار. رشّت الكتائبيات الجميلات جنود الربّ بالقرنفل والأرز ورفعت الجميلات شارة النّصر في وجه دبّابة «الميركافا» و «سوى الرّوم خلف ظهرك روم *فعلى أيّ جانبيك تميل» (المتنبّي). وإذاعة الكتائب تردّد ليلا نهارا: «إذا كان مسيحنا فلسطينيّا فلسنا نريده! ويستأهل أن يصلب وأن تقطّع أعضاؤه من خلاف! لقد صنعنا مسيحا جديدا! مسيحنا بعين واحدة!» ويرفعون في الفضاء صورا لموشي دايان. يلوّحون به في قلب

المعركة. ويرجمون به سماء الغربيّة. آلاف الصّور للأعور الدجّال. ملايين الصّور والقادم أعظم. القادم أفظع. و«شارون» يأكل «التّبولة» في مطعم شعبي في «الشّرقية» ويدفع نقدا بالدّولار. الدّولار الأخضر. دولار أمريكا. دولار إسرائيل! وآلة الدّمار تحكم الحصار. شرقا وغربا. من البحر ومن الجوّ. ويا أسوار بيروت أصمدي. يا أكياس الرّمل ويا حفر الدّيناميت كوني مقابر للغزاة. «قد أقبلوا فلا مساومه *المجد للمقومه» (معين بسيسو) هاهي راجماتهم تقصف «صبرا» و «شاتيلا» و «الفاكهاني» و «أبو شاكر» و «طريق المزرعة». ولكنّنا لن نساوم. وسنتحدّى بأقلّ ما يمكن من العتاد. مدفع مقابل عشرة طائرات. دبّابة قديمة مقابل ألف دبّابة. فتيان الدّفاع المدني المدهشين مقابل القنابل الفراغيّة. ذراعنا تنقذ الجرحى وتنقل الشّهداء وتزيح الأنقاض مقابل قذائفهم الثّقيلة وصبرنا مقابل جبروتهم. وياعاركم يا عرب!

اليوم. بعد أسبوع من بداية الحصار لم يتعب ربّ الجنود. الرّب استراح بعد ستّة أيّام وهو يخلق العالم وربّ الدّمار لم يتعب فواصل القصف والتّرويع. صارت الحالة رديئة في بيروت. مزاج النّاس كئيب والوجوه حزينة ولا كهرباء في بيروت. لا ماء في بيروت وزهور الشّرفات بدأت بالذّبول والعملاء بدأوا في تنفيذ خططهم. عملاء الكتائب والمكتب الثّاني والصّهاينة بدأوا حربهم النّفسيّة ضدّ الصّامدين في بيروت. انفجارات في العمارات السّكنية والأسواق والشّوارع. قصف من السّماء ودويّ على الأرض. القنابل تحرث الشّوارع جيئة وذهابا. والأرواح تنشطر تتشظّى تتطاير في السّماء فتاتا كالعهن المنفوش.

ويا عاركم يا عرب!

قال جيش الربّ: أخرجوا منها وإلاّ فسنجعلها بلقعا بعد عين. فرفع الرّجال التحدّي: أكياس من الرّمل في واجهات البناءات وأكوام من الحجارة عند مفارق الطّرق وحفر كثيرة حفرٌ في كلّ مكان لزرع الألغام. ويا أسوار بيروت قفي في وجه التتار والمغول. قفي في وجه الطّاعون. قفي في وجه الأوبئة السّوداء. ولن نفتح لكم الأبواب.

ولن تمرّوا.

ودخلت حرب الإذاعات المعركة. بثّت إذاعة العدوّ أخبارا عن الضّباط الذّين انهزموا في الجنوب وفرّوا قبل بداية المعركة. وتحدّثت عن الأسلحة التّي غنمها جيش الدّفاع في النّاعمة. أسلحة كثيرة نقلت إلى فلسطين المحتلّة بعد هروب المسؤول عن المستودعات قبل تفجيرها. ودعت الصّامدين إلى الإستسلام.

وجاء الردّ من صوت فلسطين، صوت الثّورة الفلسطينية حازما جازما بأنّ هؤلاء الذّين انهارت أعصابهم ضبّاط لا يستحقون شرف الإنتماء لهذا الشّعب. هم ضبّاط صغرت كرامتهم وتلاشى شرفهم فحملوا عارهم وهربوا وبأنّ قادة آخرين وصلوا إلى البقاع وإلى الجبل جرحى ولكن مصحوبين بأسلحتهم الثّقيلة والخفيفة. وبأنّ الأشبال تصدّوا لهم خلف البراكيّات وخلف أشجار الزّيتون وخلف أكداس الرّمل وبأنّهم لم يدخلوا مخيّم «الرّشيدية» إلاّ بعد أن سوّوه بالأرض.

جاء صوت الإذاعة يطمئن الصّامدين ويرفع معنويات المحاصرين ويكذّب ادّعاءات العدوّ. ولم تفد القذائف في إسكات هذا الصّوت الصّاعد إلى عنان السّماء فقصفوا آلات التّقوية في الجنوب. ولم يقدروا على الإذاعة داخل بيروت لأنّها كانت تعمل انطلاقا من أماكن مدهشة: شقّة في عمارة مواجهة للبحر أو دهليز في عمق الأرض، أو مباشرة على الهواء، هناك كان أمجد ناصر وياسين رفاعيّة وأمل جرّاح وطاهر العدوان وفيصل حوارني ونبيل عمرو (مدير الإذاعة) وحنّا مقبل ونزيه أبو نضال

وميشال النّمري ونعم فارس وسلوى العمد وغالب هلسا ورشاد أبو شاور وآخرون... كانوا يحبّرون مقالاتهم ويذيعونها بلا خوف ولا وجل.

ويا طائرات «الفانتوم» اضربي فلن نهاب قنابلك.

وخرجت جريدة «المعركة» إلى السّاحة، ووصلت إلى أخطر المواقع ، إلى الخنادق المواجهة لمواقع العدوّ. وتحدّى الشّباب الحفر التّي تملأ الشّوارع ونيران القنّاصة ووزّعوا الجريدة يدا بيد داخل المتاريس والخنادق.

وتحدّى الكتّاب الجيش الصّهيوني الرّابض أمامهم على مرمى حجر. فأمضوا مقالاتهم بأسمائهم الحقيقيّة ولم يخافوا على المصير. فالإنسان يعيش حياته مرّة واحدة و(موت الفتى في عزّة خيرا له من أن يموت أسير طرف أكحل) «عنترة» و (عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود) «المتنبّي».

وتواصلت أيّام الحرب في هذا الصّيف اللاّهب. المنازل محطّمة اخترقتها قذائف الدّبابات، والحفر العميقة تملأ الشّوارع . حفر تركتها القذائف الضّخمة التّي أسقطتها الطّائرات. والمنظر مؤلم خاصّة إذا تكرّر في كلّ يوم أكثر من مرّة. منظر الأمّهات وهنّ يحملن أطفالهنّ على صدورهنّ وعلى رؤوسهنّ أمتعة بسيطة والدّموع والخوف على الملامح. ورائحة الجثث تملأ الفضاء.

وتبثّ وسائل الإعلام أخبارا عن الحرب في الجنوب وتعرض صورا لضابط صهيونيّ وهو يفرز المعتقلين يطلب من المسيحيين أن يقفوا في الظلّ ويأمر المسلمين والفلسطينيّين بالوقوف في صهد الشّمس. والعالم يتفرّج على جنون هذه الأمّة «المتحضّرة» التّي زرعها وسط عالم من «المتوحّشين». والعالم يتفرّج على همجيّة هذا الشّعب الذّي يتلذّذ بعذاب الآخرين، ويرفض أن يشرب الماء خمسون ألفا من المعتقلين. وشربة الماء ولقمة العيش تكلّفهم أقلّ من طلعة جوّية واحدة مع قنابلها.

ويتجاوز جنونهم كلّ حساب، فتضرب طائراتهم مستشفى الأمراض العقليّة والنّفسيّة. تضرب هذا المستشفى بالقنابل الفوسفوريّة. يشتعل اللّهب الأبيض ثمّ يحترق كلّ شيء. تلتصق المادّة الفوسفوريّة بالجلد ويستمرّ احتراقها لساعات فيصل المصابون إلى المستشفيات والدّخان يتصاعد من أجسامهم. ويستمرّ خروج الدّخان من أنف المصاب وفمه مع كلّ زفرة أو شهيق مادامت الشظيّة داخل الجسم. ولا يتوقّف الحريق إلاّ بعد أن يقطع الجزء المصاب.

وتتلفّت في كلّ الإتّجاهات تبحث عن رحمة السّماء فيقابلك الدّمار في كلّ مكان :

في الفاكهاني، في برج البراجنة، في شاتيلا، في بير حسين. آذى القصف كلّ المناطق : المدينة الرّياضية مدمّرة. سباق الخيل مدمّر لا توجد في بيروت الغربيّة بناية أو جامع أو كنيسة أو مستشفى أو مدرسة لم تنل قسطها من القصف. ورغم ذلك تستمرّ الحياة.

النّاس يعيشون بين الرّكام وفي المدارس والمستشفيات وفي الحدائق العامّة وفي دار الإفتاء. يطبخون على شعلات صغيرة ويشربون المياه المنسابة من المواسير المنفجرة ويقتسمون الشّوارع ويقيمون الحيطان فيما بينهم بالبسط والغسيل على الحبال. وتصبح قلاية بندورة (طماطم) باللّحم في ظلّ الحصار وليمة.

وتستمرّ الحياة في هذه المدينة التّي تهزّها أصوات الطّائرات الخارقة لجدار الصّوت وتظلّلها حرائق الزّبالة ويملأها الأطفال الذّين دمّرتهم الحرب. فترتفع ضحكات الخارجين من الملاجي وهم يراقبون القمر. وتعلو أصواتهم تشتمّ السّردين المعلّب والتنّ والمربّى وتعلن شوقها إلى طعام الأمّهات. وتستمرّ الحياة في هذه المدينة مع نكهة البارود ورائحة الدّم وإطلالة الإبتسامة المشرقة في وجه الظّلام.

اليوم الخمسون للحصار كان اليوم الأسوأ. هذا الأحد هو أطول أيّام هذا الصّيف الرّهيب. من الفجر إلى المساء والمدينة تتعرّض للدّمار. والعالم يتفرّج. وريغن يبعث بتهانيه لبيغن الذّي يحتفل بعيد ميلاده ويرجوه قبولا جديدا لوقف إطلاق النّار والإستماع إلى مقترحات فيليب حبيب. وطائرات العدوّ ترتفع في هذه السّماء الزّرقاء، هذه السّماء الصّافية بشمسها التّي تشعّ بوهج يعمي العينين وتنقضّ بعد أن ترمي قنابل حراريّة لتضليل الصّواريخ الفلسطينيّة. والأطفال يطعمون لحمهم لهذا الوحش الأسطوري. هذا الوحش الخارج من جهنّم التّوراة.

ويعمّ الجنون المدينة. فوق السّطح المقابل لفندق «الكومودور» وقف رجل يطعم حمامه. وينثر الحبوب للطّيور والطّائرات فوق رأسه. و تهرب الطّائرات. ويحطّ الحمام على كتفيه وعلى ذراعيه فينثر له الحبّ والحبّ ولا ينظر إلى السّماء.

في قلب المدينة انتشر الشّباب بأسلحتهم، ومن مكان ما من بيروت واصل صائب سلام وساطته وظلّ لوقت طويل يهاتف ريغن. وارتفع الدّخان سحابات كثيرة من الغبار فوق غاليري سمعان والمتحف وكورنيش المزرعة.

والفدائيّون يفتحون صناديق الذّخيرة استعدادا لقتال جديد.

في الشّرقية، الصّيف جميل والبحر هادئ والنّسيم عليل والمحلاّت تعرض أزياء الصّيف الخفيفة وكرات الشّاطئ للمصطافين. وأمام قاعات السّينما إعلانات عن أفلام للممثّل «وودي الن» وقرب المرفأ القديم الأطفال بملابس السّباحة، وقوارب النّزهة في الماء، وصباح تصدح بأعذب الألحان و «بيبي عيد» صاحب مطعم يعرض دفتره للصّحفيين الهاربين من جحيم الغربيّة ويفاخر بتواقيع المشاهير الذّين مرّوا من هناك «كانديس بيرغن» و «دافيد نيفين» ويعرض عليهم للبيع تماثيل لآلهة فينيقيّة وحثّية ورومانيّة وإغريقية.

ومحمود درويش القابض على الجمر بيد حافية يقول : «بيروت موقعنا الأخير، منها إلى القبر أو إلى الوطن».

وضابط صهيوني يصرّح لجريدة «عل همشمار» بأنّه سعيد لأنّه خرج من هذه الحرب بساق مبتورة، فغيره فقد كلتا السّاقين والأشقياء ماتوا. وبيغن يقول بلسان التّوراة «لا تصالح أعداءك، لا تتوصّل معهم إلى إتّفاق ولا تبد نحوهم أيّة رحمة لتنعم إسرائيل بالسّلام وحدها».

ويستمرّ الحصار، وتستمرّ المقاومة وتخترق طائرتان حاجز الصّوت فوق الرّؤوس ثمّ تسقط سحابة من النّشرات. تتعلّق السّحابة مدّة في الفضاء ثمّ تطفو وتهبط ببطء كأنّها سرب من الجراد، يحلّق هذا الجراد المقيت بأجنحة صفراء كبيرة وشرسة ثمّ يسقط على الأرض. تتكلّم هذه المناشير بلسان يقطر سمّا : يا سكّان بيروت اهربوا واتركوا المخرّبين لمصيرهم المحتوم : القتل أو الأسر. وتطلب من المحاصرين إغتنام وقت الهدنة ووقف إطلاق النّار للخروج من البوّابات المحروسة بجنود ربّ الجنود، ولن يمسّكم أحد بسوء. وستجدون من يطعمكم المنّ والسّلوى ! ويتواصل إطلاق القذائف الصّفراء وصواريخ المناشير.

يقول اللّواء أمير درووري قائد المنطقة الشّمالية أن ليس في نيّة جيشه محاربة الجيش السّوري أو التصدّي لقوّات حطّين والقادسية ويدعو الجنود لمغادرة بيروت.

قرب المطار وجّهت مكبّرات الصّوت نداءات لجيش التّحرير الفلسطيني طالبة من الجنود التّمرّد على ضبّاطهم السّوريين الذّين يسرقون رواتبهم ويقودونهم إلى الموت.

وتحوّلت هذه الحرب النّفسيّة التّي تبثّها آلة الدّمار الصّهيوني إلى مهزلة فلا وجود لضبّاط سوريّين في جيش

التّحرير الفلسطيني. وشنّ الشّعب المحاصر هجومه المعاكس عن طريق الإذاعة والنّشرات والجرائد.

القادة رفضوا الخروج من بيروت.

أبو جهاد يقول : هنا نعيش وهنا نموت

وأبو عمّار خرج يوزّع الخبز على المحاصرين.

والمقاتلون يقرأون الشّعر في اللّيالي المقمرة ويستحضرون الطّرائف والنّكات ويذهبون للسّباحة وعيونهم على بوارج العدوّ. ويقصفون الشّرقية بالآربيجيهات والمدفعيّة الثّقيلة ومدافع الهاون ويشربون المبرّدات ويأكلون المرطّبات في حرّ الصيف فبيروت لها مفاجآتها لمن تحبّ.

وإسماعيل شمّوط يواصل عرض لوحاته في صالة الكرامة ولا يهمّ أن تقذف الطّائرات قنابلها على الصّالة، فالأولاد يطيّرون في السّماء طائراتهم الورقيّة لتصطدم بطائرات العدوّ وتفجّرها.

ويخرج الأولاد يوم عيد الفطر ألعابهم النّاريّة ويصوّبونها إلى المواقع الأماميّة للعدوّ لتنفجر البسمة في الوجوه الكالحة وتزغرد النّسوة أمام الملاجئ وتواصل المطاعم تقديم الوجبات للفقراء بعد أن فتح لهم المسؤولون في المقاومة أكياس الفاصوليا الجافّة والعدس والدّقيق والحمص وقوارير الزّيت.

ويرفض تجّار الخضر والغلال رفع أسعار السّلع المهرّبة من الشّرقية فلا شيء أغلى من الإنسان في هذه المدينة الرّائعة.

ويتواصل عرض محمود اللّبدي على رصيف الفاكهاني لتشكيلة من القذائف التّي لم تنفجر : هدايا ريغن وبيغن للشّعبين الفلسطيني واللّبناني.

ويتواصل الحبّ تحت الطّائرات : لينا الفلسطينية تعشق ميشال الماروني وسوزان المسيحيّة تموت حبّا في غسّان الفلسطيني إلى أن قرّر الصّهاينة يوم 4 آب/أغسطس اقتحام بيروت. ضربوها من كلّ الجهات بأحدث ما أنتجت صناعة الحرب الأمريكية. بعض هذه الصّناعة جديد لم يستعمل من قبل. وبشير جميّل فخور بأسود يهوذا الرّابضين في الشّرقية.

ويشتعل كلّ شيء في المدينة، الأشجار والسّيارات والبيوت. حتّى سفارة الإتّحاد السّوفياتي لم تسلم من القصف. لقد قرّر الصّهاينة حرق بيروت بمن فيها قذفوا المدينة في يوم واحد بمائة وخمسين ألف قذيفة وبأسلحة إبادة جماعيّة. والعالم يتفرّج والتّلفزيونات تواصل بثّ المسلسلات وحفلات الرّقص والغناء.

ولا تقدر سيّارات الإطفاء الحمراء العملاقة على التحرّك فلا ماء في بيروت. والضّابط الصّهيوني الذّي يملك خرائط المدينة دخل مبنى المياه الرّئيسي وأدار العجلة التّي تقطع الماء على الغربيّة وخرج من المبنى بهدوء.

ولكن بيروت لن تفتح أبوابها للغزاة فمئذنة مسجد القائد جمال عبد النّاصر واقفة تناطح السّماء وإذاعة صوت لبنان العربي تبثّ نداءات إبراهيم قليلات الصّامدة وتقرأ أشعار شوقي بزيغ ولن نركع.

والفنّان عدلي فخري وزين العابدين فؤاد يغنّيان للجرحى في المستشفيات.

ونساء الهلال الأحمر الفلسطيني يعتنين بالجرحى ويطبخن وجبات سخنة للمرضى.

ويقرأ الشّعراء قصائدهم مباشرة على الهواء في إذاعة فلسطين فيعبر إلى بيروت المحاصرة فدائيون جدد وصلوا من كلّ بقاع العالم.

وسيّدات بيروت يعتصمن أمام الجامعة الأمريكية ضدّ الحرب. مسلمات ومسيحيّات يرفضن أن تتحوّل بيروت إلى «مسادا». فلن يقتل الفلسطينيون أولادهم ونساءهم ثمّ

يقتل الواحد منهم الآخر حتّى آخر قطرة دم.

سيتحدّى الفلسطينيّ دواد بطلقة الآربي جي وبسمة الطّفل وزغرودة المرأة الصّامدة في وجه رومان آخر الزّمان.

ولن تمرّ أوهام الصّهيونية وأساطيرها. أبدا لن تمرّ.

وتهدّد إسرائيل باستعمال غاز الأعصاب للفتك بالمحاصرين وتشيع في المدينة أن صهاريج معبأة بهذا الغاز قد وصلت إلى بيروت وأنّ قاذفات اللّهب جاهزة لتوجيهها ضدّ بعض البناءات والمناطق المزدحمة بالسّكان ويشتدّ الضّغط على المقاومين فيجيبهم أبو عمّار بسخريّته اللاّذعة: سنكتري جزيرة يونانيّة لهذا الشّعب الذّي ملّ الجميع فصول مأساته.

ويواصل فيليب حبيب عرضه: انكفاء المقاتلين داخل المخيّمات لسحب السّلاح منهم ثمّ الخروج من بيروت تحت راية الصّليب الأحمر.

وتملأ دعاية راديو الكتائب الجوّ بالهذر: سيخرج المقاتلون من بيروت عزّلا مطرودين رافعين الرّاية البيضاء بين صفّين من جنود إسرائيل.

ولن يرفع بعد الآن فلسطينيّ رأسه تيها في الفضاء.

وتستمرّ المفاوضات لتنتهي بفكّ الإرتباط بين المتقاتلين وبخروج الفلسطينيّين من بيروت خروجا مشرّفا!

بيروت التّي فاجأت الرّاحلين بوداعها.

بيروت التي فاجأت العرب بوداعها للرّاحلين.

بيروت التي فاجأت العالم بوداعها للرّاحلين.

بالزّغاريد وزخّات البنادق والأرز والقرنفل ودّعت بيروت الرّجال الذّين صمدوا ثلاثة أشهر تحت لهيب النّار.

### على سبيل الخاتمة

لم تنته فصول المأساة فبعد خروج المقاومة وقعت المذبحة الرّهيبة في مخيّمي «صبرا» و «شاتيلا» بين يومي 15 و18سبتمبر وراح ضحيّتها آلاف الفلسطينيّين رجالا ونساء. المذبحة التّي لم يقدر عليها جيش ربّ إسرائيل قدر عليها العرب، تمّت العمليّة بتدبير إسرائيلي وبيد ميليشيّات لبنانيّة عميلة (ميليشيا سعد حدّاد خصوصا).

وقد أحدثت هذه المذابح رجّة في الضّمير العالمي. ولكن بعد فوات الأوان.

قتل الرّجال والنّساء والأولاد والبنات ولم ينج من المجزرة حتّى الشّيوخ. ذبحوا بالسّكاكين ورجموا بحبّ الرّصاص. كانت المليشيات اليد القذرة التّي نفّذ بها الصّهاينة جريمتهم حتّى يتنصّلوا من المسؤوليّة إذا دعا الدّاعي. أطلق المظلّيون الصّهاينة قنابل مضيئة داخل المخيّمات بواسطة مدفع هاون من طراز 81مم. وواصلت الطّائرات إطلاق نور جهنّمي لإضاءة الأجواء أمام جنود الميليشيات وهم يمشّطون المخيّمات.

فسعى ستّ مائة مارد يتكلّم العربيّة داخل المنازل وفي المستشفيات وفي دور العبادة يبحثون عن الضّحايا. فتكوا بكلّ شيء يتحرّك ولم يسلم من شرّهم المستطير حتّى الأطبّاء والممرّضات. وعندما فاحت الرّائحة النّتنة وانتشرت أخبار المذبحة في العالم الذي أفاق من ذهوله أصدرت وزارة بيغن بيانا نشر كإعلان على صفحة كاملة من جريدة «نيويورك تايمز» الأمريكيّة تقول فيه أنّ الجيش الإسرائيلي لا علم له بفصول المذبحة وإنّه حين علم بالأحداث الدّامية وضع حدّا لها وأجبر الميليشيّات على الخروج من المخيّمات.

و... ياداميي العينين والكفّين إنّ اللّيل زائل

لا غرفة التّوقيف باقية ولا زرد السّلاسل

نيرون مات ولم تمت روما بعينيها تقاتل

وحبوب سنبلة تجفّ ستملأ الوادي سنابل

(درويش)

# شعر الحصار في الأندلس بين الشهادة والإبداع بلنسية نموذجا

سوف عبيد*

لئن حفظت الذاكرة الجماعية من الشعر الأندلسي وصف الأجنة والشوق إلى الأحبة مع الحنين إلى أجمل الذكريات على شجون الموشحات - فإن الشعر الذي عبر عن الصراع والوقائع في الأندلس هو من الوفرة والتنوّع بحيث يمثل صنفا يمكن النظر فيه نظرة المؤرخ الباحث عن القرائن الدالة ويتسنى للناقد أن يتفحص متونه فإذا هو شعر قائم على شهادة العصر وعلى إبداع الشعر.

إن الصورة التي نحملها عن الشعر الأندلسي هي أنه غنائي، فيه رنات الأوتار وعبير الأزهار لكن له أيضا وجها آخر هو وجه الحروب بما فيها من معارك وحصار يرسم بصدق المأساة التي عاشها العرب في الأندلس وهم يشاهدون عقد بلدهم ينتثر فإذا شعراؤهم يعبرون عن أحوالهم بما ينتابها من قلق وخوف على المصير وهم يترددون بين الأمل والرجاء من ناحية وبين اليأس والقنوط من ناحية أخرى.

إن الشعر الأندلسي إذا قرأناه في هذا السياق سجل حافل مفتوح بحيث أنه قد رصد البداية والنهاية في أدق التفاصيل وفي أصدق المشاعر للعرب بين الإنتصار والإنكسار في الأندلس. (1)

عندما طلع القرن الخامس الهجري (11م) على الأندلس ألفاها في خضم فتنتها الكبرى تتقاتل المدائن فيها حتّى أضحت مقسمة بين ملوك الطوائف بعضهم يكيد إلى الآخر ضمن حروب بينهم بلا هوادة مما جعلهم ثمرات يحين قطافها متواليات وكلما سنحت الفرصة للممالك الإسبانية المتربصة بهم وبداية من النصف الثاني للقرن الخامس الهجري انقلب ميزان القوى لصالح تلك القوة الإسبانية التي تمكنت من تجاوز خلافاتها الدّاخلية لمواجهة وتحدي ثم دحر الإمارات الأندلسية الواحدة تلو الأخرى مما جعل شاعرا مثل ابن عسال يقول بعد سقوط طليطلة مسقط رأسه ورحيله عنها :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم
فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدولا يفارقنا
كيف الحياة مع الحيات في سفط(2)

## حصار بلنسية

ثم استفحلت الخلافات بين ملوك الطوائف في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري (11م) خاصة في شرق الأندلس مما ساعد أحد الفرسان الإسبان يعرف بلقب (السيد) (3) على اغتنام فرصة ثورة داخلية في المدينة فضرب حولها الحصار الشديد من جهاتها المختلفة وعمل على منع المدد إليها والفتك بالخارجين منها وكان البلنسيون يؤملون في نجدة المرابطين من المغرب إذ قال أحد شعرائهم مستهزئا من عيافة الطير

* شاعر تونسي

التي التجأ إليها الإسبان لمعرفة وقت استسلام المدينة (4)

قولوا للذريق إن الحق قد ظهرا

أو فقدوه إذا ما طيره زجرا

سيوف صنهاجة في كل معترك

تأبى لأطياره أن تصدق الخبرا

ويقصد بلذريق (السيد) ويشير بصنهاجة إلى المرابطين الذين خيبوا أمل أهل بلنسية بالرغم أن جيشهم قد وصل إلى أحوازها ثم انسحب دون محاولة انقاذ المدينة (5) وقد أورد الدكتور جمعة شيخة في كتابه (الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي) نصا لابن علقمة يصف فيه الحصار الذي دام عشرين شهرا سنة 487 هـ الموافق لسنة 1094م وردفيه (6) :

(بلغ رطل القمح في ربيع الأول بمثقال ونصف ورطل الشعير بمثقال ورطل زريعة الكتان ستة أثمان مثقال وأوقية الجبن ثلاثة دراهم وأوقية البصل بدرهم ورطل البقل بخمسة دراهم وبيضة دجاجة بثلاثة دراهم ورطل اللحم البغلي بستة دنانير ورطل الجلد البقري بخمسة دراهم. وفي ربيع الثاني عظم البلاء وتضاعف الغلاء واستوى في عدم القوت الفقراء والأغنياء فأمر ابن جحاف باقتحام الدور فحصا عن القوت... وانسلخ هذا الشهر ورطل القمح بثلاثة مثاقيل غير ربع ما سواه تابع له ولايصل إلى إدراك شيء من الموجود إلا أهل الجاه، وترمق سائر الناس بالجلود والأصماغ وعروق السوس ومن دون هؤلاء بالفيرة والقطط وجيف بني آدم وهجم على نصراني وقع في الحفير فأخذ باليد ووزع لحمه.

وجد الطاغية في حرق من خرج من المدينة إلى المحلة لئلا يخرج الضعفاء ويتوفر القوت على الأغنياء، فهان على الناس الإحراق بالنار فعيث فيهم بالقتل وعلقت جثثهم من صوامع الأرباض وبواسق الأشجار...)

قد كان الأديب أبو الوليد الوقشي شاهدا على حصار بلنسية حيث كان عمره 74 سنة فأنشأ قصيدة في وصف هذه المحنة لكن القصيدة لم تصل إلينا إلا في ترجمتها الإسبانية التي تعرف بمرثية الوقشي لبلنسية (7) وقد عبر فيها عن حبه لبلنسية فوصف جمالها الطبيعي وازدهار العمران فيها ثمّ ذكر في أسف وحزن نكبتها مرددا عند آخرها قوله شعرا : (إذا أنا مضيت يمينا هلكت بماء الفيضان، وإن ذهبت يسارا أكلني السبع، وإذا مضيت أمامي غرقت في البحر، فإذا التفت خلفي أحرقتني النار).

## صدى الحصار في الشعر الإسباني

كان الشعر الإسباني أيضا صدى لهذه الواقعة التاريخية فقد أنشئت ملحمة كاملة من وحي حصار بلنسية تعرف بملحمة السيد وقد أوردها الدكتور أحمد مكي ضمن دراسة مقارنة (8) والإسم الحقيقي للسيد هو رودر جودياث دي بيار أما كلمة السيد فلعلها تكون من اللفظة الأندلسية وإمّا تكون بمعنى الذئب وهو أمر شائع في ذلك العصر في الأندلس عند أهلها جميعا.

أما الملحمة فهي وصف للحصار بما تخلله من فقد للطعام ومعاناة مفصلة لأهل بلنسية وقد جاء فيها أمر طلب النجدة من مراكش وفي الملحمة وصف للجيش وللمعركة ثم تذكر النصر على بلنسية والظفر بالغنائم العديدة والثمينة ومنها هذه المقاطع (9) :

بقي سكان بلنسية مرعوبين

لا يجرؤون على الخروج وليسوا راغبين في النضال

بينما السيد يدمر جنانهم ويلحق بهم أفدح الأضرار

وخلال هذه الأعوام حال بينهم وبين الحصول علي أي

طعام وضج سكان بلنسية شاكين وحاروا ماذا يفعلون

لم يعودوا يحصلون على الخبز من أي مكان
وذهل كل والد عن ولده، ولم يعد الأبناء يساعدون الآباء
ولا الصديق صديقه، لم يعد أحد يعاون في الضراء
وضج سادة القوم فلم يعودوا يملكون رغيفا من الخبز
وماتت الزوجات جوعا ومات الأبناء (...)
كانت آلامهم مجسمة وعن التخلص منها عاجزون
فأرسلوا إلى ملك مراكش يطلبون العون
وضرب سيدي حولها حصارا دقيقا صارما
لا يفلت منه إنسان
لا أحد من سكانها يستطيع خروجا أو الدخول
وضرب لهم أجلا لعل أشقاءهم لمساعدتهم يقدمون
ودام الحصار مستمرا تسعة أشهر بلا انقطاع
وبمجيء العاشر أحنت المدينة رأسها مستسلمة...

وقد وصف ابن عذاري المركاكشي دخول الجيش الإسباني مدينة بلنسية وفتكه بقاضيها الذي أمر بحرقه حيا على مشهد من أهله (10).

## الجلاء عن بلنسية وإحراقها

سجل ابن حمديس استرداد المدينة على يد المرابطين الذي هبوا بعدئذ لنجدة بلنسية وتحريرها سنة 495هـ الموافق لـ 1102م وذلك في قصيدة مطلعها (11) :

الآن سح غمام النصر فانهملا
وقام صخر عمود الدين فاعتدلا
ولاح للسعد نجم قد خوى فهوى
وكر للنصر عصر قد مضى فخلا
وثار يطلع نقع الجيش معتكرا
بحيث يطلع وجه الفتح مقتبلا
وللقنا أعين قد حدقت حنقا
وللظبى ألسن قد أفصحت جدلا

ووصف المعركة قائلا :

وللقنا أعين قد حدقت حنقا
وللظبى ألسن قد أفصحت جدلا
وناطع الموت حتى خر منجدلا
موسدا فوق نصل السيف تحسبه
مستلقيا فوق شاطئ جدول ثملا

ويقصد ابن خفاجة بهذا القتيل ابن السيد نفسه المسمى (دياقو) (12) ثم يتعرض لهزيمة الإسبان مبينا أثر الذل والهوان في نفوسهم وقد ظهر على الوجوه :

كأني بعلوج الروم سادر
وقد تضعضع ركن الكفر فاستفلا
في موقف يذهل الخل الصفي به
عن الخليل وينسى العاشق الغزلا
ترى بني الأصفر البيض الوجوه به
قد راعها السيف فاصفرت له وجلا

وبنو الأصفر يعني بهم الشاعر الإسبان الذين أحرقوا بلنسية عند الجلاء عنها فتحوّلت إلى أشباح وأكوام بعد عمران وازدهار وقد سجل الأدباء هذه الأحداث التي ألمت ببلنسية على يد (السيد) والمعروف أيضا بالكنبيطور فقد كتب أبو عبد الله بن علقمة الصدفي كتابا خاصا بها سماه (البيان الواضح في الملم الفادح) كان مصدرا أساسيا لأخبار تلك الوقائع وقد أخذعنه ابن الأبار وابن عذاري (13) وقد شهد كذلك أبو عبد الرحمان بن طاهر حال بلنسية في السنوات الأخيرة من القرن الخامس الهجري بما تخللها من حصار ودمار فقال وقد نقل عنه ابن بسام في الذخيرة : (فلو رأيت قطر بلنسية، نظر الله إليه، وعا بنوره عليه، وماصنع الزمان به وبأهليه، لكنت تندبه وتبكيه، فلقد عبث البلد برسومه، وعدا على أقماره ونجومه، فلا تسأل عما في نفسي، وعن نكدي وبأسي) وقد أثار خراب بلنسية بعد حصارها ابن

خفاجة فقال هذه الأبيات يرثيها :

عاثت بساحاتك العدى يا دار

ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردد في جنابك ناظر

طال اعتبار فيك واستعبار

كتبت يد الحدثان في عرصاتها

«لا أنت أنت ولا الدّيار ديار!

وقدر إحسان عباس أن قصيدة ابن خفاجة كانت أكثر أبياتا ولم يبق منها إلا هذه الأربعة، ذلك أن بلنسية كانت جزءا من معاهد الشاعر وعهوده وأم وطنه (14) وأثار ما أصاب بلنسية أيضا نفس الأديب والعالم أبي عبد الله بن خلصة متذكرا رياضها الغناء فقال :

وروضة زرتها للأنس مبتغيا

فأوحشتني لذكرى سادة هلكوا

تغيرت بعدهم خربا وحق لها

مكان نوارها أن ينبت الحسك

لو أنها نطقت قالت لفقدهم

بان الخليط ولم يرثوا لمن تركوا (15)

ومن الشعراء الذين تفاعلوا مع نكبة بلنسية فذكروها في شعرهم ابن عياش الذي قال فيها :

بلنسية بيني على القلب سلوة

فإنك روض لا أحن لزهرك

وكيف يحب المرء دارا تقسمت

على صارمي جوع وفتنة مشرك (16)

أما الشاعر ابن حريق فقد أكد تعلقه بالمدينة رغم النائبات التي تسلطت عليها وشبهها بالجنة المحفوفة بالمكروه إذ أنه قال فيها :

بلنسية قرارة كل حسن

حديث صح في شرق وغرب

فإن قالوا : محل غلاء سعر

ومسقط ديمتي طعن وضرب

فقل هي جنة حفت رباها

بمكروهين من جوع وحرب (17)

**الحصار والسقوط**

ذكر ابن خلدون حصار بلنسية للمرة الثانية (18) بداية من مهاجمة الإسبان للمدن الشرقية من الأندلس عندما تملك صاحب قشتالة مدينة قرطبة وظفر صاحب أرغون بالكثير من الحصون حول بلنسية وبنى حصنا حولها لإحكام قبضته عليها فاعتزم أميرها زيان بن مردنيش على الخروج من المدينة والتصدي للإسبان واستنفر معه أهل شاطبة وشقر فزحفوا جميعا عليهم ولكن الغلبة كانت للإسبان في يوم عظيم البلاء استشهد فيه الشيخ أبو الربيع بن سالم شيخ المحدثين بالأندلس.

وعند يوم 5 رمضان من سنة 635هـ / 21 أفريل سنة 1138م بدأ خايمي الأول الحصار المضيق على بلنسية من كل الجهات برا وبحرا فأوفد ابن مردنيش كاتبه الأديب الشاعر ابن الأبار إلى تونس استنجادا بأميرها زكرياء الحفصي الذي استقبله في محفل كبير حيث أدى ابن الأبار بيعة أهل بلنسية وأنشد قصيدته السينية الشهيرة طالبا فيها النجدة وقد أوردها ابن خلدون جميعا وقد استجاب الأمير الحفصي للنداء فبعث إليهم أسطوله مشحونا بمدد السلاح والطعام والمال فنزل بمرسى دانية لكن لم يأت أحد من قبل ابن مردنيش ليتسلمه.

تمثل قصيدة ابن الأبار شهادة تاريخية على ذلك الحصار بالإضافة إلى كونها علامة إبداعية لما فيها من صدق الإحساس وبراعة الالتماس فهي تعتبر انموذجا لشعر الحصار في الأندلس وقد أدت الغرض من صياغتها وانشادها إذ لبى الأمير الحفصي مضمونها، إنها من هذه

الناحية مثال تاريخي صحيح عن قدرة الكلمة على الفعل والتأثير الملموس في مجريات الوقائع بالإضافة إلى تأثيرها الأدبي حيث عارضها عديد الشعراء حتى إلى وقتنا الحاضر بل إن هذه القصيدة ما تزال قادرة على استلهام الواقع العربي الحديث بما فيه من حصار على مستويات عديدة.

**قصيدة ابن الأبار**

مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا

إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهي في نحو 47 بيتا على بحر البسيط وقد قدم لها ابن خلدون قائلا :

«وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ويحهم وظهر أمر بني أبي حفص بإفريقية، فأمل ابن مردنيش وأهل شرق الأندلس الأمير أبازكرياء الكرة وبعثوا إليه ببيعتهم، وأوفد عليه ابن مردنيش كاتبه الفقيه أبا عبد الله ابن الأبار صريخا، فوفد وأدى بيعتهم في يوم مشهود بالحضرة، وأنشد في ذلك المحفل قصيدته على روي السين يستصرخه فيها للمسلمين».

فالقصيدة قيلت لغرض محدد يتمثل في طلب النجدة لأهل بلنسية خاصة ولأهل شرق الأندلس عامة وللمسلمين كافة، وهي أنشدت بمناسبة محفل خاص لأداء بيعتهم للأمير أبي زكرياء الحفصي في تونس وأكد ابن خلدون في كلمتين هما (صريخا) و (يسترخصه) على معاني الإلحاح في النجدة وعلى التأكيد في الإغاثة مع إعلان ذلك على الملإ فالقصيدة من هذه الناحية تكتسب بظروف قولها وإنشادها بعدا دراميا واضحا.

بلا مقدمات شعرية في وصف المرأة أو الرحلة أو غيرهما من تقاليد الفن الشعري وبلا استطرادات في وصف الحسب والنسب والشجاعة والكرم لتمهيد المطلب على ما اعتاده شعراء المدائح، أعلن ابن الأبار الفزع والهلع منذ الكلمة الأولى ذلك أن المناسبة تقتضي الجد والتصريح دون مداراة أو تلميح فكأن القصيدة جميعها صرخة واحدة أراد بها ابن الأبار ومن خلاله الأندلسيون أن يستنفروا الأمير الحفصي الذي هيأ المناسبة لتكون ذات حدث جليل والبيت الفاتحة جاء في صيغة الأمر عند صدره وعلى صيغة التأكيد عند عجزه مما يجعله صادرا عن وثوقية وإقرار من ناحية، ويتضمن من ناحية ثانية الطلب والسبب بالإضافة إلى معاني الإسراع والإيمان والإحالة على القرآن، لكننا نلاحظ من حيث الإيقاع النفسي أن البيت بدأ في اشتداد وانتهى إلى انتكاس.

لقد استعمل ابن الأبار التحريض لحث الهمة على الإسراع في النجدة فمرة يعود إلى الجانب العقائدي قائلا :

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم

إلا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفي بلنسية منها وقرطبة

ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلها الإشراك مبتسما

جذلان وارتحل الإيمان منبئسا

وصيرتها العوادي عائثات بها

يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

ما للمساجد عادت للعدى بيعا

وللنداء يرى أثناءها جرسا

ومرة يلجأ إلى المعاني المدحية بما يتخللها من حماسة وفروسية مثل قوله :

ملك تقلدت الأملاك طاعته

دينا ودنيا فغشاها الرضى لبسا

مؤيد لو رمى نجما لأثبته

ولو دعا أفقا لبى وما احتبسا

كأنه البدر والعلياء حالته

تحف من حوله شهب القنا حرسا

ولم ينس الشاعر ذاته في خضم هذه المناسبة فتذكر موطنه بلنسية بما فيها من جمال طبيعي وحنين لسالف عهوده العذبة بين مرابعها :

وأربعا غنمت أيدي الربيع بها

ماشئت خلع من موشية وكسا

وحال ما حولها من منظر عجب

يستوقف الركب أو يستركب الجلسا

فأين عيش جنيناه بها خضرا

وأين غصن جنيناه بها سلسا؟!

لكن ابن الأبار لا يكاد يصرف القول إلى الحنين أو إلى نكبة بلنسية أو إلى ذكر فضائل الأمير أبي زكرياء حتى يعود إلى التأكيد على غرضه الأصلي والأساسي ألا وهو الإسراع بالنجدة :



يا أيها الملك المنصور أنت لها

علياء توسع أعداء الهدى تعسا

وقد تواترت الأبناء أنك من

يحي بقتل ملوك الصفر أندلسا

طهر بلادك منهم إنهم نجس

ولا طهارة ما لم تغتسل النجسا

وأطئ الفيلق الجرار أرضهم

حتى يطاطئ رأس كل من رأسا

وانصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت

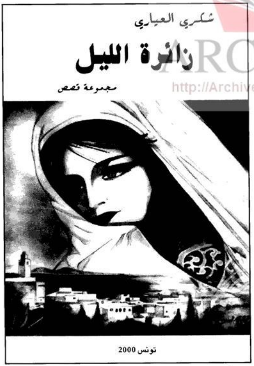
عيونهم أدمعا تهمي زكا وخسا

واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه

لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى!

إن التأكيد على النجدة بالجيش واضحة لكن الأمير الحفصي اكتفى بالمدد من المال والسلاح والطعام حيث قال ابن خلدون عند آخر القصيدة : (فأجاب الأمير أبو زكرياء داعيتهم وبعث إليهم اسطوله مشحونا بمدد الطعام والأسلحة والمال مع أبي يحي بن يحي بن الشهيد أبي إسحاق بن أبي حفص. وكانت قيمة ذلك مائة ألف دينار. وجاءهم الأسطول بالمدد وهم في هذا الحصار فنزل بمرسى دانية واستفرغ المدد بها (19).

إن حصار بلنسية قد انتهى بسقوطها على يد الإسبان وبعودة ابن الأبار إلى تونس حيث تولى خطة الإنشاء والعلامة لكن حياته ستنتهي كذلك بمأساة. (20)



## الهــوامــش

1- محمد الطالبي ، مقدمة كتاب الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي للدكتور جمعة شيخة - ص 17 تونس 1994

2- محمد العروسي المطوي ، الحروب الصليبية - دار الغرب الإسلامي بيروت 1982- ص 215-

3- انظر التعريف به في كتاب الدكتور جمعة شيخة - الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي - ص 101تونس 1994

4- نفس المصدر - ص 103

5- حسين مؤنس - مقال : السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين - المجلة التاريخية المصرية - المجلد عدد 3- العدد الأول - ماي 1950، 60

6- جمعة شيخة - نفس المصدر - ص 104

7- مقال حسين مؤنس - ص 65

8- أحمد مكي - ملحمة السيد

9- جمعة شيخة - نفس المصدر ص 108

10- ابن عذاري المراكشي. البيان المغرب - الدار العربية للكتاب - بيروت 1983 - ج 4 - ص 151

11- ابن خفاجة - الديوان- ص 208 طبعة الإسكندرية

12- جمعة شيخة - نفس المصدر - ص 113

13- إحسان عباس - تاريخ الأدب الأندلسي - دار الثقافة - بيروت 1971 - ص 186

14- نفس المصدر ص 187

15- نفس المصدر ص 187

16- جمعة شيخة - الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي تونس 1994- ص 116 ونسب هذان البيتان لابن حريق في معجم الأدباء - ياقوت الحموي - ج 1 ص 491 طبعة بيروت 1955.

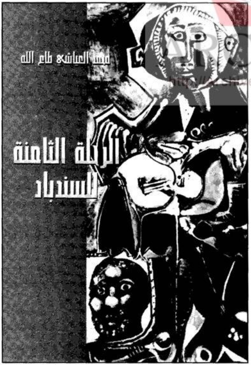
17- نفس المصدر - ص 192 - 193

18- ابن خلدون - المجلد السادس من كتاب العبر ص 600 طبعة بيروت 1959

19- نفس المصدر ص 604

20- انظر أخباره في : الحلل السندسية في الأخبار التونسية للوزير الشراج - الجزء الأول - القسم الرابع - ص 1204 - الدار التونسية للنشر 1979

وفي تاريخ إفريقية في العهد الحفصي بروبار لبرنشيفيك الجزء الثاني ص 388-و 404 طبعة بيروت تعريب حمادي الساحلي وانظر سيرته ومؤلفاته في كتاب تراجم المؤلفين التونسيين محمد محفوظ ج 1- ص 16 تونس 1982.



# ثقافة الطفل العربي بين السمعيات والبصريات

الطيّب فقي أحمد*

الطفولة في كلّ شعب ينشد الحياة السعيدة، هي وجهه المشرق بالأمل، وهي قلبه النابض البكر، وهي روحه الوثابة اليقظة. أما معيار الحضارة بين الشعوب، فقد صار بقدر اهتمام كلّ شعب باطفاله.

ونحن أبناء الأمّة العربية، جدير بنا في هذا الظرف بالذات، ان نضاعف الجهود في العناية بأطفالنا من حيث التنشئة والتربية والتثقيف والتكوين.

فنهتمّ أكثر بالثقافة التي تقدّم لهم في مختلف اعمارهم، حتى نغرس فيهم القيم الأخلاقية النبيلة، والمبادئ الإنسانية السليمة. ونرعى كذلك الكتابة الموجهة لهم باعتبارها فنّا جميلا تهدف إلى بناء شخصية الطفل بناء متوازنا يتناول الجوانب النفسية والعقلية والإجتماعية، حتى يغدو في مجتمعه انسانا سويّا منتجا.

وقد اتضح في السنوات الأخيرة أنّ أطفالنا أصبحوا في أشدّ الحاجة إلى تعميق صلتهم بمضامين جديدة متنوّعة المصادر، وقراءات جديدة مواكبة لمتطلبات العصر، ومستشرفة للمستقبل.

خاصّة، وانّ الإنسان خطا خطوة مهمة في مجال العلم والتقنية، حيث غزا الطبيعة بفتوحاته العلمية، ولم يعد يخشاها، أو ينظر إليها نظرة خوف أو عداء، بل اخضعها لخدمته، وحرص على تجميلها وابعادها عن التلوث والدمار. فقد جاب الفضاء، وغاص في اعماق البحار، وحوّل الأوهام والخرافات القديمة إلى حقائق مذهلة.

وليس من المنطق في شيء أن نظلّ في هذا العصر الحديث والمتطوّر نكتب للطفل أقاصيص بعيدة كل البعد عن الواقع، ولا صلة لها بالتكنولوجيا التي كانت لاعجازها تفوق التصوّر والخيال.

وإذا كانت ثقافة الطفل تشكّل النسيج الثقافي للتكوين الثقافي، فهي في أصلها رؤية استشرافية تنشد التغيير، أي تغيير الواقع، والإرتقاء به إلى الأحسن والأفضل.

وتحتلّ ثقافة الطفل هذه المكانة المتميّزة في المنظور الثقافي والحضاري لدى الأمم، لأنها تهدف أساسا إلى تكوين شخصية الطفل، ومدّها بالدعائم اللازمة بالعودة إلى الثوابت المرجعية للمجموعة الوطنية.

فقد تأكّد الآن انّ مستقبل ثقافة الطفل هو مستقبل الشعب نفسه، ما دامت الحياة هي تسلسل طبيعي لمختلف الأجيال.

**ثقافة الطفل والوسائل السمعية - البصرية :**

في إطار المؤتمر الحادي والعشرين للإتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب، تنعقد هذه الندوة المتخصصة تحت عنوان : (مستقبل ثقافة الطفل العربي) وتتضمّن محاور عديدة اخترت منها : (ثقافة الطفل العربي بين السمعيات والبصريات) ليكون محور مداخلتي.

وإذا كانت ثقافة الطفل هي التنمية، تنمية الأخلاق والمعارف والعلوم لدى الإنسان، فإنّ الوسائل التي تقدّم من خلالها الألوان والمواد الثقافية والأدبية للطفل،

* كاتب تونسي مهتم بأدب الأطفال

اصبحت كثيرة ومتنوعة. تشمل الكتب والصحف والمجلات، والإذاعة والتلفزيون والمسرح والسينما، والأقمار الصناعية، والألعاب الإلكترونية والفيديو والحاسوب، والملصقات وغيرها ...

والملاحظ في هذا الصدد، انّ هذه الوسائل تعدّدت عبر الزمان. وصارت كلّها تفتح على ابداع المعارف والفنون، ولها دورها الفاعل في تنمية الأطفال عقليا وعاطفيا واجتماعيا.

وهذه الوسائل يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع، هي :

1- وسائل بصرية : تعتمد البصر لنقل المعلومات، وابلاغها إلى المتلقّي، ونجد منها الكتاب والصحيفة والمجلة، والخرائط والصور والرسومات...

2- وسائل سمعية : تعتمد السماع لا يصال المعلومة والخبر، وقد مرّت من الشاعر والقاص الشعبي والبرّاح (المنادى)، قديما، إلى الإسطوانة والإذاعة والأشرطة المسموعة.

3- وسائل سمعية . بصرية : تعتمد حاستي السمع والبصر في ذات الحين. ومنها السينما والتلفزيون والمسرح والفيديو، ثم الكمبيوتر والأنترنات...

ولا بدّ هنا، ان نستعرض خاصيات بعض الأساليب السمعية . البصرية التي نعرفها، وتتواجد بين ايدينا وايدي أطفالنا.

**1- المسرح :**

يعرّف المسرح بأنّه وسيلة اتّصال راقية ومؤثّرة، يتفوّق على وسائل الإتصال الأخرى، بما له من خصائص المباشرة والفورية وسهولة مخاطبة الجماهير المتفاوتة في الثقافة والإهتمام.

وهو وسيلة اتصال فعّالة حين يكون موجّها للأطفال. فهم يستفيدون منه إلى درجة معقولة، سواء في الإستجابة الوجدانية وفقا لما يعرض عليهم من عمل فنّي يؤديه ممثلون حقيقيون، أو من خلال عرض للعرائس، أو من خلال الإستجابات المرجأة فيما بعد، عند العودة إلى المنزل، أو في الأيام التالية لمشاهدة العرض المسرحي.

ومن الثابت، أنّ العمل المسرحي الناجح يشدّ انتباه المتفرج طوال تواجده لمتابعة العرض، ثم يظلّ عالقا بذهنه وعقله وخياله حتى بعد مغادرته المكان المخصص للعرض.

أما المسرح المدرسي الذي يمثل الدعامات التربوية الحديثة، فإنه يتيح للتلاميذ فرصا ثمينة للتعبير عن النفس، واكتساب الخبرات والمهارات اللغوية والإجتماعية، في جوّ تسوده روح التعاون والألفة والمحبة.

ولزيادة التقدم والإرتقاء بهذا الفنّ الجميل، فإنّ الوضع العربي يتطلب اعادة النظر في مسرح الطفل وتناول الاعمال المسرحية الطفلية بالنقد والتحليل حتى يرتفع المستوى الفنّي ويرقى .

**2 - السينما**

يقال ان السّينما هي الساحرة التي يتعلق بها كل طفل لانها تمثل صورة واضحة وحركة مستمرة وحوار سريعا مختصرا والطفل كما هو معروف تستهويه الصورة ، و يحب الحركة ، ويطرب للحوار .

وتعتبر السينما من أهم وسائل الاتصال ، تزداد اهميتها للأطفال الذين لديهم الاستعداد والقابلية للاستجابة الشاملة والسريعة لفهم لغة وحركة الصورة اكثر من أي شيء آخر .ومشاهدة الأفلام السينمائية المختارة تثير حماس الاطفال ، وتجذب انتباههم ، و تكشف عن عناصر الابداع فيهم اثناء المحاكاة والتمثيل . والواقع ان الافلام التي تنتج للأطفال لا تزال متأخرة كلّ التاخير ، وقاصرة غاية التقصير . وقد ادرك ذلك العاملون في

حقل سينما الاطفال ، واعلنوا انهم يفتقدون الجودة والإبداع ازاء هذا الفن، وانهم عاجزون عن الوصول الى مستوى الفيلم الجيد لطفل هذا العصر .

ولا شك ، ان هذا التقصير يدفع الاطفال حتما الى مشاهدة افلام الكبار . وفي ذلك من الاضرار التي تلحق بنفسية الطفل وعقليته و عواطفه ، مالا يخفي على ذى عينين .

وقد يكون السبب الاصلي في ذلك عدم توفر رأس المال اللازم لانتاج الفيلم ، بالإضافة الى ذلك ، نظرة المخرج المغايرة لنظرة الطفل الذى يعجبه هذا ولا يعجبه ذاك والى الصعوبة في العثور على أطفال يتقنون العمل الفني ، وقوانيين الشغل التي تمنع ذلك .

ولكن الى متى سيبقى اطفالنا بدون افلام تناسبهم لغويا وعقليا واجتماعيا ووجدانيا ؟ والى اى مدى سيظلون عالة على الافلام المستوردة بالرغم من سلبياتها المتعددة بالنسبة لأطفالنا ، أو متطفلين على سينما الكبار التي قد تضر بهم اكثر مما تنفعهم ؟

## 3-الكتـــاب :

لا شك ، ان الكتاب يمثل اداة علمية وثقافية لا غنى عنها لاى انسان عارف . له اثر فاعل ومؤثر في تنمية المدارك . وانارة العقول .

والكتاب الثقافي للطفل هو الذي يقدم له الصور الذهنية والفكرية والوجدانية ، ويفسر له المعاني التي تتكون في خاطره وخياله على مرّ السنين ، ويترجم له كل التصورات والافكار والخيالات ، معتمد ة على الانطباعات الحسية و المعنوية . فيجد فيها امتاعا فكريا ووجدانيا .

وهو ايضا ، الكتاب الذى ينقل اليه القيم الحضارية والتربوية ، والمبادىء ، والتراث باشكال فنية جذابة ، فيبسط له بذلك خبرة مهذبة ، وينمي فيه القدرة على معالجة الحياة .

ولا تزال مكتبة الطفل الثقافية في عالمنا العربي قاصرة تفتقر الى الكثير من الموضوعات الثقافية و المداخل التي يجب ان تصدر خلالها .

هذه الموضوعات ينبغي ان تكون لها صلة باهتمام القارىء وميوله بحيث تعمل على اشباع حاجاته النفسية، لان القارىء في بلادنا العربية -وهو من جيل الشباب - لم يعد يقبل ان يكون متخلفا في رجب الحضارة عن بقية الشباب في العالم الخارجي .

واصبح ايضا يدرك العلوم الحديثة في عصر لم يعد للمسافات فيه ادنى اعتبار .

واحقاقا للحق أصبحنا نرى بعض دور النشر لا تكتفي بنشر القصص والشعر ، بل شرعت تنشر مختلف انواع المعرفة التي وصلتها الانسانية فيما يتصل بالتقدم العلمي والتقني والاختراع والاكتشاف حتى لا يكون الطفل مفصولا عن واقع الحياة ، أو مبهورا امام وقائع يراها ويسمعها دون ان يتجاوب معها ، أو دون ان يكون له بها المام بسيط في مستوى ادراكه .

واصبحت كتب الاطفال تمثل الركيزة الاساسية لثقافة الطفل عن طريق الكلمة المكتوبة، لأنها تضيف اليه بعدا جديدا ، بعدا جماليا يفتح عقله ونفسه وقلبه للحياة، وهي ايضا تثرى تجربته ، وترهف حسه وذوقه ، وتصقل مواهبه و ملكاته .

وفي الحقيقة منذ بروز آخر صيحات التقدم التقني في العالم حول الكومبيوتر ، والكتاب الالكتروني ، والمكتبات السمعية - البصرية ، والوثائق الرقمية ، وشبكات الانترنات ،والعولمة والقرية الكونية وغير ذلك ...بدات

تظهر هنا وهناك مخاوف على مستقبل الكتاب والقراءة . والواقع ان تلك المخاوف مبالغ فيها ولا مبرر لها، لان الكتاب سيبقى في كلّ العصور ، وفي جميع الظروف والأحوال هو المتفوق والمنتصر والصامد . وسيظلّ اقوى من التقنية التكنولوجية والاكترونية . ولن تستطيع ان تهزمه الانترنات ، ولا ينجح الاتصال الرقمي في طمسه ، أو في تقليص دوره ، وتقزيم مكانته .

فالكتاب حسب تقدير المختصين والخبراء لن يتزعزع اطلاقا، لانه الوثيقة المثلى التي تطمئنّ اليها القلوب . وإذا كان يحمل بعض الامراض أو المتاعب ، ففحصه ممكن ،ومراجعته ممكنة ومعالجته جائزة في كل حين .

وكلنا يعلم ، أن الكتاب عرف منذ عهد بعيد بأنه خير جليس وانيس، وهو سلوى للنفس ، ومتعة للقلب ، وزاد للذهن يفتح له آفاق المعرفة، والإتصال بالثقافة الانسانية على أوسع مدى .

قال ابو الطيب المتنبي

أعز مكان في الدنى سرج سابح ... وخير جليس في الزمان كتاب ... والكتاب هو اساس الحضارات ، ومنطلق الاختراعات . إذ اثبت التاريخ البشري ان حضارة الكتاب أقوى الحضارات اطلاقا وحتى التكنولوجيا بكل جبروتها ، ما هي الا ثمرة من ثمرات الكتاب .

يرى المتخصصون والعلماء والباحثون أنّ الكتاب سيبقى اداة ناجعة للتثقيف والتكوين ولصقل النفوس وترويضها . وانه سيظل صامدا محتفظا بدوره ، لما يمتاز به من خصوصيا ت لا توجد في غيره من الوسائل الاخرى . من أهمها :

-ثبات المحتوى المسجل على الورق، الامر الذى يمكّن من الرجوع اليه والاستفادة منه عند الحاجة .

– طواعية خاصة ، تساعد على التأمل والتفكير والتساؤل والاستفسار، بحيث يستطيع المرء أن يقرأ الكتاب كله أو بعضه في اى وقت يشاء .

– حميمة التعامل معه ، اذ يسهل اصطحابه الى المدرسة أو الحديقة ، وهو خير رفيق في السفر والترحال ، وقد يؤنس في الفراش احيانا .

ومهما كان التطور فسيبقى الكتاب هاما ، ولا يفقد قيمته فحتى الكمبيوتر وحتى الانترنات ليس غير اداة حديثة ومتطورة ، لترويج الكتاب على نطاق واسع ، وبشكل اسرع. ونحن اليوم في حاجة اكيدة الى كل التقنيات الحديثة التي حتمها العصر لتكون مجتمعة فاعلة في مسير الحضارة الانسانية .

بقي شي هام لا بد من الاشارة اليه ، وهو الإهتمام اكثر بمواصفات الكتاب الجيد من ناحية الاخراج والشكل : من سمك في الغلاف ، وورق جيد في الداخل ، الى حجم الكلمات الخاصة بسن الطفل القارىء . هذا بالإضافة الى قيمة الموضوع المطروق بلغة فصيحة ، واسلوب جميل واضح .

### 4-الإذاعـــة :

ان الإذاعة وسيلة سمعية من وسائل الاتصال، تتميز بقدرتها على اثارة خيال الطفل يعاونها في ذلك المؤثرات الصوتية كالموسيقى والاصوات الطبيعية التي توحي اليه بمعان مختلفة وتثير فيه الانفعالات والاحاسيس، ونقرب الى مفهومه ما يصعب عليه فهمه.

اما العمل الإذاعي فهو بدون شك يثير حماس الاطفال ، ويولد لديهم الرغبة في ممارسته . وهو مصدر حيوى للكشف عن مواهب الصغار وابداعاتهم في الاداء والالقاء والقراءة والكتابة.

وان الطفل المستمع الى الاذاعة يتأثر بالبرنامج المسموع وما يدور فيه من حوار وما يحتويه من معلومات تؤدّى

بنبرات صوتية مميزة ، تدفع الطفل الى الاهتمام والتركيز على الاستماع والاصغاءالجيد ، فيجنح الى التقليد والتقمص والمحاكات.

وكثيرا ، ما تثير الموضوعات المعالجة في برامج الاذاعة المسموعة ميول الطفل الابداعية وتلبي رغباته واهتماماته ، وحاجاته النفسية والعقلية . كما انها تدرب خياله ، وتنمي مداركه وتفكيره .

واذا كانت الكلمة المقروءة هي احدى وسائل الثقافة ووسائطها ، فإن الكلمة المسموعة تفوقها في سرعة التأثير ، ومدى الوصول الى الاحاسيس والوجدان .

ولهذا ، فإن البرامج الموجهة للصغار تعتبر جاذبة لهم إذا احسن اعدادها وتقديمها واخراجها حسب تخطيط سليم ، واعتماد المواصفات الخاصة بذلك . وقد لا تجذبهم إذا فشلت في عامل أو أكثر من العوامل السابقة . وقد ينصرفون عن الإستماع الى الإذاعة.

ومن جراء ذلك ، تفطنت الشعوب المتقدمة الى هذا الاثر الخطير على نفوس الاطفال ووجدانهم ، والى مدى تعلقهم بما يذاع فجعلت لهم برامج خاصة ، وخصصت لهم أوقاتا معينة حتى يكونوا مستعدين منتظرين لها .

وراعى المسؤولون عن التنفيذ ان تكون هذه البرامج سليمة نظيفة تحترم الطفل وتجتذبه بثرائها عن التطلع الى برامج الكبار أو التطفل عليها .

وما يمكن ان اقترحه في خصوص ما تقدمه اذاعاتنا العربية لأطفالنا هو تقسيم برامجهم على مراحل طفولتهم ، واعطاء كل مرحلة ما يناسبها من برامج وحكايات واناشيد وما شابه ذلك...

**5- التلفزيون :**

يعتبر التلفزيون من اهم وسائل الإعلام بالنسبة للطفل ، لما تتميز به من خصائص ، في مقدمتها انه وسيلة سمعية - بصرية تعتمد الصوت والصورة الملونة المتحركة .

وهو يثير دوافع الاطفال للاستماع والمشاهدة والمشاركة ويؤدي الدور في تفجير طاقاتهم الابداعية . وله تأثير ايجابي على شخصياتهم ، وتنوع ميولهم .

وقد اتضح ان تأثير التلفزيون في جمهور الأطفال ابلغ واعمق من تاثيره في الكبار لطبيعة مرحلة النمو ذاتها ، والتي يكون فيها الكائن البشرى اكثر قابلية للتعليم والتأثير .

واثبتت الدراسات انّ الاطفال يفضلون البرامج التي تقدم لهم المنوعات ويقبلون عليها ثم المسلسلات ذات الشخصية الثابتة ، ثم القصص الخرافية والواقعية المرحة والمغامرات فالبرامج الغنائية والموسيقية ... وهم يقومون بتقليد ومحاكاة مايرونه من خلال التلفزيون بنسبة تقارب الثمانين بالمائة .

وإذا كانت البرامج التي يشاهدها الطفل مختارة اختيارا جيدا ، ومصحوبة بتعليق الوالدين عند الإقتضاء ، فان التلفزيون يساعد على مدّ الطفل بزاد معرفي ولغوي يمكنه من اثراء مردوده المدرسي .

يرى الباحث الامريكي ( دانيال اندرسون) ان الأطفال يتعلمون الكثير مما يشاهدون وينصح الوالدين ان يراقبوا بعناية البرامج التي يتابعها الاولاد على شاشات التلفزيون، لأن هذا الجهاز السحرى استطاع ان يسيطر على شخصية الطفل ، وان يجعله يستغرق الساعات الطويلة من حياته في المشاهدة . كما استطاع ان يسحبه من بين اصدقائه أو من بين افراد اسرته ، ليجعل منه الصديق الوفي ، واقرب المقر بين اليه .

وعلى الرغم من اهمية برامج الأطفال التلفزية ودورها في التثقيف والتزويد بالمعلومات والقيم ، فإنها مازالت تعاني

من المعوقات والمشاكل . نظرا لدقتها وصعوبتها في كلّ مراحل تكوينها وتنفيذها تاليفا واعدادا وتصويرا واخراجا .

والوضع الحالي للتلفزيون العربي بصفة عامة ، يستوجب المراجعة والمراقبة، وذلك بتكوين لجان قراءة ومتابعة وتقييم، من المتخصصين في علم النفس والاجتماع والتربية والادب ، لوضع الاسس السليمة التي يجب ان تحكم البرامج من حيث القيم ، والجودة الفنية ، والتنوع حتى يمكن الاستغناء عن المسلسلات الاجنبية الوافدة والضارة بالمفاهيم العربية ، وحتى نقف بالمرصاد لمحاولات الغزو الثقافي لعقول اطفالنا الصغار .

ولا أريد أن أطيل عليكم في هذا المجال ، ولكنني اردت ان اغتنم الفرصة ولا اتركها تفوت دون ان انبه إلى المخاطر التي قد تتسبب فيها اجهزة الاتصال الحديثة والمتطورة .

- **فالفيديو** : دخل البيوت بدون استئذان ، وقد حذر علماء النفس والاجتماع من خطره على الأطفال ، وتأثيره على المجتمع . لان مادته تنتج بالخارج ، ولا تخضع للرقابة الكاملة .

- **والكمبيوتر** : رغم المعلومات الكثيرة والجاهزة التي يحويها ، والاعمال العديدة التي ينفذها ، فقد ظهرت فيه آلاف الفيروسات التي تقدر على الاذى ، وتحدث الاضرار. وتعمد احيانا الى القيام باعمال تخريبية ، وتحذف الملفات .

- **أما الأنترنات** : الشبكة العالمية للمعلومات ، التي مكنت سكان المعمورة من الإتصال والتواصل وتبادل المعلومات فيما بينهم ، فقد بانت فيها ، عند اتباع المعلومة بالشبكة بعض الانزلاقات الاخلاقية .

وما ينبغي التاكيد عليه في هذا الصدد هو ان يتم تعامل اطفالنا مع هذه الاجهزة ذات التقنيات العالية ، بيقظة وحذر كبيرين . ورب الاسرة هو الرقيب الحسيب ، وعليه ان يتفق مع ابنائه وبناته على مواعيد معينة للابحار معهم بقصد الاستفادة من العلوم والتقنية ، والاعراض عن المخاطر التي قد تعترض سبيلهم اثناء البحث والتنقيب.

ونظرا للتحولات السريعة التي يشهدها العالم ، فإن الحاجة تدعو بالحاح الى مراجعة البرامج والمناهج التربوية الموجهة للاطفال في مختلف الاقطار العربية ، بما في ذلك برامج وسائل الاعلام من اذاعة وتلفزة وكتب وصحف ومجلات ، وإعادة صياغتها بصورة تساهم في ترفيع الخيال العلمي لدى الأطفال ، وتعزيز قدرتهم على الخلق والابتكار .

ان التربية المستقبلية في بلادنا العربيّة، يجب ان تعمل على الارتقاء بالثقافة العلمية للطفل حتى تؤهله لدخول العصر التكنولوجي ومواكبته و فهمه والتعامل معه .

وحتى ندخل القرن الجديد مسلحين بالعلم والعمل والإرادة القوية ، متمسكن بالمبادىء والقيم ، يتحتم علينا ان نربي النشء على الخلق والإبتكار والتفكير في المستقبل . وحتى نبعد عنهم الرضا عن النفس بالحالة التي هم عليها ، ونخلق فيهم الحيرة ، ونحفزها على العمل الجدى ليصلوا الى حالة التغيير ويصبحوا منتجين

- ألم يكن العرب متفوقين في ميادين العلم والثقافة والفنون ؟

- ألم يكونوا شعلة وهاجة استضاء بنورها اهل الأرض جميعا ؟

- ألم تكن الحضارة العربية الإسلامية متميزة عن سائر الحضارات ؟

- ألم نكن خيرامة اخرجت للناس ؟

بالعمل المتواصل والكد نحقق التقدم والإرتقاء، بامتلاك

العلوم والتقنية نستطيع مواكبة متغيرات العصر . وعند ذلك يمكن ان نساهم بقسطنا الاوفر في الحضارة الانسانية بدون ان نتخلى عن هويتنا العربية الإسلامية المجيدة.

**خاتمة :**

لقد اصبحنا الان نعيش في عصر لغته العلم والتقدم التكنولوجي ، حيث غدت فيه وسائل الاتصال تسيطر على ميادين المعرفة كلها . بل تطورت وتقدمت لتكون الادوات الثقافية بامتياز ، لها اثر واضح في عمليات التنمية الإجتماعية .

وصارت ثقافة الطفل علمية بالضرورة الى حد كبير والعلم فيها جزء من كيانها . وظلت مرتبطة بابداع الشعب الذي ترتبط به وتعود اليه، لانها تعتبر نقطة البدء في التنمية الثقافية العامة والاساس الذي ينبني عليه العمل الثقافي مستقبلا .

وحتى لا نبقى دائما صامدين لجميع محاولات الاستلاب والتشويه أو الغزو الثقافي يجب علينا أن نخطط لثقافة الطفل العربي باعتبارها ضرورة اساسية في التنمية الشاملة واضحى تدخل الدولة فيها امرا لازما ، لتقوم بالدور الأولي ، وتكون المسؤولة عنها .

وهذه القيادة من طرف الدولة لاتعني السيطرة على الثقافة في الإبداعات ، ولا التدخل في حرية المبدع الثقافي سواء بالتوجيه الالزامي ام بالتسخير لا غراض غير ثقافية .

لكن الصعوبة تتجلى في اختلاف الاجواء الثقافية في الوطن العربي حسب البيئة بين المدينة والريف والبادية وما يمكن تطبيقه في المدينة يستحيل تطبيق مثله في البادية، وما يمكن ان يعتبر وسيلة ناجعة في ريف أحد البلدات، هو في الغالب وسيلة مخففة في الأرياف الاخرى وهذا كله يعني ان ليس ثمة جمهور ثقافي عربي واحد ، توضع له سياسات واحدة ومشاريع وبرامج موحدة . ولكن جماهير متنوعة ، وعلى الخطة احتضانهم جميعا، وتوحيدالاتجاهات والعطاء الحضاري .

أما تحول المسيرة الثقافية في الدول العربية الى مسيرة قومية اكثر تقدما واكثر شمولا ، فلن يكون الا بارادة الدولة و بجهد الشعب من جهة اخرى .

وفي الختام ، نأمل ان تبذل الجهود الصادقة للعناية بثقافة الطفل باعتبارها قضية قومية ومصيرية، واساسا للتطور والنمو في سائر ارجاء الوطن العربي ، وخير ضمان لتعزيز الريادة الفكرية في بناء المستبل الزاهر .

ولا شك ، ان النظر الجاد في خفايا ثقافة الطفل رهين الالمام بخصوصياتها واهدافها المميز يمكن ان تساعد الباحث والمخطط على تحديد الشروط الكفلية بتطوير واقع الطفل في بلداننا العربية .

فما هي الثقافة التي نريدها للطفل العربي مستقبلا؟ بدون ريب انها ثقافة يجب ان تقوم عل اسس ثابتة قوامها تأصيل الهوية الثقافية للطفل في المجتمع العربي الحديث ، على أساس من دعم وتنمية احساس الطفل بالأصالة العربية ، ومن التفاعل مع العصر ومتغيّراته .

# القـــرارات والتـوصـيـات

اتخذ المؤتمر العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب القرارات الآتية:

1 - انتخاب الدكتور علي عقلة عرسان أمينا عاما للإتحاد العام لدورة قادمة :2001 / 2004

2 - انتخاب العراق نائبا أول للأمين العام .

3 -انتخاب الجزائر نائباً ثانياً للأمين العام .

4 - انتخاب أعضاء الأمانة العامة وتوزيع المكاتب وفق الآتي :

الأردن : مكتب مقاومة التطبيع

تونس : مكتب الحريات .

الجماهيرية : مكتب ثقافة الطفل .

مصر : مكتب النشاط الثقافي

5 - منح جائزة القدس لكل من :

أ - ألفريد فرج : مصر - عن عام 1999 ز

ب - فيصل عبد الوهاب : العراق - عن عام 2000

6- المصادقة على مشروع «**قانون حماية حقوق المؤلف**» في الوطن العربي .

7- عقد المؤتمر العام القادم في الجزائر 2004

8 - العمل على إجراء محكمة ضمير لمجرمي الحرب الصهاينة تشكل من شخصيات عالمية ، فكرية ، وسياسية ويتعاون الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب مع المنظمات القومية في هذا المجال .

9-العمل على إنشاء مركز توثيق قومي لجرائم الصهيونية التي ارتكبتها بحق العرب ، ومراكز توثيق قطرية لهذه الغاية ، حفاظا على الذاكرة والوجدان العربيين فيما يتعلق بمعطيات الصراع العربي الصهيوني .

10-إعادة العضوية للسودان في الإتحاد العام بفاعلية كاملة

11- المصادقة على النظام الداخلي لمكتب ثقافة الطفل.

12- إقرار توزيع نشاطات الاتحاد العام خلال الدورة القادمة على الاتحادات الأعضاء.

13- كما كلف المؤتمر الأمانة العامة بمتابعة التوصيات التي صدرت عن ندوتي : الحصار ، ومستقبل ثقافة الطفل العربي ، وهي توصيات تغطية للجانب الثقافي بشكل عام .

14- اختيار أفضل مئة رواية عربية صدرت في القرن العشرين للعمل على ترجمتها للغات الحية .



## التـــوصيـــات :

### أولا - على صعيد العراق :

1- ضرورة تزويد الإخوة في العراق بما أمكن من الكتب والمطبوعات .

2- يؤكد المؤتمر على تعميق الوعي بمخاطر الحصار وأضراره ويدعو إلى الكتابة حول نتائجه والعمل على رفعه كليا، واستلهام أعمال إبداعية مما تركه من أثر على المجتمع .

3- ضرورة البحث عن الوسائل الممكنة لدعم الكاتب

العراقي .

4- يدعو المؤتمر إلى ضرورة دعم المكتبات العامة في العراق إلى تعزيز الثقافة الجماهيرية.

5- يدعو المؤتمر المبدعين العرب إلى استلهام نضال الأمة العربية في إبداعهم وجعل ذلك الإبداع يحرض على مقاومة الظلم والفساد والطغيان .

6- يوصي المؤتمر الأمانة العامة للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب بالتوجيه إلى اتحاد الكتاب والأدباء في الوطن العربي بإرسال نسخ من كل مؤلف أدبي جديد أو بحث أو رسالة جامعية إلى الاتحاد العام للكتاب العرب لإيصالها إلى العراق .

7- حث الاتحادات والكتّاب على تقديم مادة لموقع الاتحاد العام للأ دباء والكتّاب العرب على الانترنت ، وتوزيع عنوانه على الكتّاب جميعاً.

8- ضرورة أن تعمل اتحادات الكتّاب العرب على زيادة ما تخصصه من إمكانيات لنشر مؤلفات الكتاب العراقيين .

9-تسهيل حركة الكتاب ودخوله وتوزيعه في الأقطار العربية وتخفيض أجور شحنه وأسعاره ، لا سيما فيما يخص المرسل منه إلى العراق .

10-يوصي المؤتمر بضرورة بذل جهود مستمرة في الأمم المتحدة من أجل ما يلي:

**أ- أن نفط العراق للعراق ولا يجوز القول بأنه مقابل الغذاء لأن العراق شعب ودولة ومؤسسات ، وهو يحتاج** إلى مردوده النفطي من اجل الغذاء والدواء وإعادة البناء .

**ب ـ** أنه ليس من حق أحد أو مؤسسة حتى ولو كانت مرجعية ذلك الأمم المتحدة أو مجلس الأمن إذ لا مشروعية للتفتيش.

**جـ ـ** أن تحليق الطائرات الأمريكية والبريطانية وقصفها لشمال العراق وجنوبه ، إنما هو استمرار للعدوان الظالم على العراق ، وان على الأمة العربية أن تقف مع العراق في مواجهة هذا العدوان .

**د ـ** أن يقوم الاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب بِشنِّ حملة من اجل فتح الحدود البرية حول العراق للاسهام في فك الحصار بشكل شامل عن العراق.

**هـ ـ** أن يعلن الإتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب أن الحصار على العراق لا ينفصل عن الحصار المفروض على الشعب العربي الفلسطيني نظرا لكون هذا الحصار جزءا من خطة إستراتيجية أمريكية صهيونية تستهدف العراق وفلسطين أولا وتفضي إلى حصار الأمة العربية والوطن العربي، وان يؤكد على أنّ المعركة واحدة في مواجهة هذا الحلف الشرير ضد العراق وفلسطين وليبيا والسودان .

11- تكليف الأمين العام بتوجيه رسالة الى الملوك والرؤساء يطلب فيها العمل على رفع الحصار العربي - العربي على العراق الشقيق.

**ثانيا - على صعيد مقاومة التطبيع مع العدو الصهيوني:**

توحدت نظرة المؤتمر إلى إنتفاضة الأقصى المبارك ولا حظ الحرب الحقيقية التي تشنها الآلة العسكرية الصهيونية على شعبنا العربي الفلسطيني وأن هذه الإنتفاضة تؤكد أن الصراع مع العدو ومن تحالف معه صراع وجود وليس نزاعاً على حدود ، وسوف يستمر حتى التّحرير الشامل وعودة فلسطين إلى أهلها الأصليين ، وحسم الصراع لمصلحة الأمة العربية .

ويدعو المؤتمر إلى تطوير الإنتفاضة ودعمها واستمرارها واحتضان الشعب العربي لها ، لتؤسس لمقاومة منظمة ومسلحة تلحق بالعدو خسائر مباشرة ، ولا تكون لمجرد تحسين شروط التفاوض أو تحريك المفاوضات مع الكيان الصهيوني .

ويلاحظ المؤتمر بارتياح التلاحم العظيم بين جماهير

الشعب الفلسطيني في أماكن وجوده كافة وخاصة عرب فلسطين 48 الذين تصدوا للكيان الصهيوني العنصري ببطولة وقدموا الشهداء مشاركة منهم في انتفاضة جماهير امتنا العربية التي عبرت عن موقفها وأجبرت الأنظمة العربية على التحرك لدعم الانتفاضة ، الأمر الذي أكد قومية المعركة مع العدو الصهيوني ومن يتحالف معه ، ويعزز مكانة الفكر القومي في مواجهة القطرية ومصالحها الضيقة.

ويرى المؤتمر أن هذه الانتفاضة تؤكد بالدم إن شعبنا العربي الفلسطيني ومعه الأمة العربية يرفض اتفاقيات الإذعان والإستسلام :« **كامب ديفيد** »و«**أوسلو**» و« **وادي عربة**» التي أعطت **جميعها** شرعية للكيان الغاصب لفلسطين خاصة وأن هذه الاتفاقيات سمحت للعدو بالاستمرار في خلق حقائق جديدة على الأرض بزرع المزيد من المستوطنات والهيمنة على الأرض والتاريخ ، والاستمرار في التهويد والتهديد .

ويلاحظ المؤتمر أن المحاولات الصهيونية لانتزاع الموافقة من سلطة الحكم الذاتي الفلسطينية بسيادة يهودية على القدس وكل فلسطين هي جزء من المشروع الصهيوني، الأمر الذي ترفضه انتفاضة الأقصى المباركة وجماهير الأمة العربية والإسلامية . وسيبقى النضال مشرعا حتى تحرير القدس وتحرير فلسطين لان كل ذرة تراب محتلة هي أرض مقدسة لا يجوز التخلّي عنها مهما كان النضال طويلا ومهما كان التحرير غاليا.

ويبارك المؤتمر الانتفاضة التي أسقطت نهج التسوية مع العدو الغاصب ويطالب بالمشاركة الحقيقية معها بعمل جماهيري عربي مواز في كل الأرض العربية خاصة وانّ قرارات القمم العربية والإسلامية لا ترقى إلى المستوى المطلوب للتحرير والعودة حيث إن العقيدة الصهيونية تسعى للسيطرة على كافة أرجاء الوطن العربي سياسيا واقتصاديا وعسكريا ومازالت تخطط لتهجير عرب فلسطين كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

ويرى المؤتمر أن الانتفاضة أكدت قدرة الشعب الفلسطيني على المقاومة وتحريك الشارع العربي وشده إلى النضال ، وحددت موقفه من قضية فلسطين ، وجعلته كتلة واحدة تضغط على الأنظمة لاستعادة الدور القومي والمسؤولية القومية عن فلسطين والقدس . وأن أبطالها قدموا نماذج استشهادية نادرة مما يجعل الشعب الفلسطيني البطل مؤهلاً لخوض معركة التحرير وإلحاق بالعدو الصهيوني كما فعلت المقاومة في جنوب لبنان .

ولا حظ المؤتمر ضرورة العمل على تبني خطاب ونهج إعلاميين جديدين قادرين على التأثير في الرأي العام العالمي، وكشف الطبيعة العنصرية الصهيونية وممارساتها النازية، وقتلها الأطفال بدم بارد ، وأن يتوجه الإعلام العربي إلى مخاطبة الرأي العام الغربي على الخصوص بلغة عصرية موضوعية قادرة على الإقناع وبلغات أجنبية وعبر قنوات فضائية خاصة قادرة على الوصول إلى المشاهدين ، كما يطالب المؤتمر الكتّاب العرب بالعمل من اجل المساهمة في إعلام يستنهض همم الجماهير وصولا إلى النصر.

*يدعو المؤتمر إلى استمرار العمل في مقاومة التطبيع مع العدو الصهيوني والاستمرار في رفض كل أشكال التطبيع مع العدو الصهيوني .

* يؤكد المؤتمر على ضرورة التمسك بالمصطلحات المتداولة عربيا في صراعنا مع العدو الصهيوني وعدم استخدام ما يروجه الإعلام الغربي- الصهيوني من مصطلحات جديدة مضللة مثل " الشرق أوسطية" أو"الإرهاب"...إلخ

يوصي المؤتمر باعتبار يوم 15 "مايو" من كل عام يوما للتضامن مع الشعب الفلسطيني والتأكيد على عروبة

فلسطين وحثّ المتضامنين من البلدان العربية والإسلامية على الخصوص إلى التعبير عن ذلك بكل الوسائل ومنها الحضور إلى حدود فلسطين المحتلة .

* يوصي المؤتمر وزراء الإعلام العرب بالعمل من اجل إنشاء قنوات عربية باللغات الأجنبية لخدمة القضايا العربية وفي مقدمتها قضية فلسطين .

**ثالثا – على صعيد البيئة:**

يدعو المؤتمر الحكومات العربية إلى العمل من أجل حماية الأرض الزراعية الفلسطينية من جرف التربة وقطع الأشجار ومن عمليات الاستيطان فيها لقطع مصادر رزق الفلسطينيين وإجبارهم على الهجرة .

**رابعا – على صعيد المقاومة اللبنانية :**

لقد شكلت المقاومة الوطنية في لبنان أنبل ظاهرة في تاريخ العرب المعاصر . فقد استطاع المقاومون اللبنانيون البواسل بتصميمهم العالي وإرادة القتال عندهم أن يدحروا العدو الغاصب ، وان يجبروه على الانسحاب من جنوب لبنان مجللا بالعار والهزيمة تحت غطاء الانسحاب تنفيذ للقرار 425 الذي لم ينفذ مدة اثنتين وعشرين سنة ، ولم تنفع كل الأسلحة التي استخدمها العدو الصهيوني في الوقوف في وجه من صمم على القتال واختار طريق الشهادة والفداء في سبيل تحرير أرضه وأهله .

إن النهج الذي اختارته المقاومة العنيدة ، واصطفاف الشعب البناني موحدا وراءها ، ودعم الشقيقة سورية لها ، والنصر الكبير الذي حققته، هو النموذج الحي لما يمكن أن تحققه الإنتفاضة في فلسطين ، التي يجب أن تستمر وان تدعم بكل ما تحتاجه حتى تحقق للشعب الفلسطيني أحلامه في دولة حرة مستقلة عاصمتها القدس .

وإذ نشيد بالإنجاز التاريخي الذي حققته المقاومة اللبنانية ندعو إلى تأكيد حق المقاومة في استمرار نضالها لإجلاء العدو الصهيوني عن الأراضي اللبنانية التي ماتزال تحتلها ، ونحيي نضال المقاومة الوطنية و الإسلامية في لبنان ونثمن صمودها عاليا ، كما نؤكّدُ حق سورية في تحرير الجولان ونحيي صمود أهله .

**توصيات ندوة أدب الطفل :**

1. تزويد الطفل بأدب مميز سواء من التراث العربي أم من ترجمة الآداب الأجنبية التي ثبتت جودة توجهها .
2. دعم المؤسسات التي تهتم بأدب الطفل وتنشيط ثقافته.
3. الدعوة إلى الاستفادة من الخيال العلمي في الكتابة للأطفال .
4. الاستفادة من الوسائط الحديثة لثقافة الأطفال .
5. العمل على تشجيع إنشاء جمعيات وروابط تعنى بثقافة الطفل ضمن اتحادات وروابط الكتاب العرب .
6. دعوة أدباء الأطفال العرب إلى استلهام التراث الشعبي المفعم بالقيم القومية .
7. حماية الطفل العربي والإنتاج الإبداعي والفكري الموجه له من مخاطر الغزو الثقافي عبر وسائل الاتصال والمعلوماتية ، وضرورة إنتاج برامج وبرمجيات بديلة.
8. **التأكيد على :**

أ ـ الاعتناء بكتاب الطفل من حيث الطباعة والصورة والإخراج والتوزيع والسعر .

ب ـ التوعية بان النشر الإلكتروني ليس بديلا عن الكتاب.

ج ـ العمل على ترجمة نماذج من أدب الطفل العربي إلى اللغات الأجنبية الأخرى.

د ـ دعوة الأمانة العامة للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب إلى تبني مؤتمر خاص بأدب الطفل .

# البيـــان الخـتامــي
## للمؤتـمر العـام الحـادي والعـشريـن
## للإتحاد العام للأدباء و الكتاب العرب

في لحظة تاريخية دقيقة تعاظم فيها نضال الشعب الفلسطيني ممثلا في انتفاضة الأقصى حتى وصل مرحلة متطورة متحدياً أشكال العدوان العسكري كافة ضد العدو الصهيوني و الدبلوماسية التي تدعمها الولايات المتحدة الأمريكيّة ، وذلك بعد أن أثبتت المقاومة الوطنية والإسلامية الباسلة في لبنان قدرة الإنسان العربي على إلحَاق الهزيمة بالعدو عبر نهج المقاومة .

وفي موقع ذي دلالة هو بغداد، انعقد المؤتمر العام الحادي والعشرون للإتحاد العام للأدباء والكتاب العرب من 22-25 كانون الثاني " جانفي "2001 برعاية كريمة من السيد الرئيس صدام حسين رئيس جمهورية العراق بهدف كسر الحصار وإعلان وقوفه الى جانب العراق الشقيق في هذه الظروف وبعد أن نجح صموده في أن يفرض على موازين القوى في العالم ضرورة رفع الحصار الجائر الذي جابهه هذا الشعب الصامد عقدا كاملا من الزمان .

من هنا تأتي أهمية هذا المؤتمر الذي يجتمع فيه ممثلون للمبدعين من الأقطار العربية معلنين تضامنهم الكامل مع انتفاضة الأقصى، ومشيدين بصمود العراق ، وداعين إلى رفع الحصار عنه فورا بشكل كامل . وقد انعقد المؤتمر تحت شعار " **لا للعدوان الأمريكي - الصهيوني لا للحصار لا للتطبيع والاستسلام**"وانتظمت جلساته بعد الافتتاح والجلسة الخاصة حول الانتفاضة، لتناقش موضوعين هما الحصار و مستقبل ثقافة الطفل العربي .وكشفت أبحاث المؤتمر ومناقشات المشاركين فيه حقيقة النوايا والشعارات والمخططات الأمريكية والصهيونية المرتبطة بمسلسل التآمر الأمريكي الصهيوني على القضايا العربية وعلى الأقطار التي لا تنصاع للإرادة الصهيونية الأمريكية فتمارس عدوانا مباشرا عليها وتفتعل الأسباب لفرض الحصار وتوجيه التهم وتشويه الصورة النضالية ؛ لأن تلك الخطط كانت ومازالت مدخل الغرب الاستعماري والإمبريالية والصهيونية للتغلغل في المجتمع العربي وإضعاف خصائصه الفكرية والنفسية عبر إثارة النعرات الطائفية وتكريس النظرات القطرية والعمل على زعزعة الأمن لتحقيق هيمنتها ، وليس لحماية حقوق الإنسان وتطبيق الديمقراطية كما يدعون ، فتلك ذرائع سياسية توظف لتحقيق المصالح والمخططات الأمريكية -الصهيونية .

ومن هنا يرى المؤتمر أن الذين يحاصرون العراق ، ويحرمونه من جميع حاجاته الأساسية ، ويقصفونه يوميا بالقنابل والصواريخ هم أنفسهم الذين يقتلون يوميا أطفال فلسطين ، وشبابها ونساءها ، وهم أيضا الذين يفرضون أنواعا أخرى من الحصار ضد أقطار عربية أخرى مثل ليبيا والسودان .

لقد أكد المؤتمر على أن الغطرسة الأمريكية واندفاعها الوحشيّ للهيمنة على العالم ، جعلها تتمادى في التحكم بقرارات منظمة الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن الدولي وتتجاهل الأهداف الإنسانية للمنظمات الدولية وأنظمة تلك المؤسسات . وإن هذه الغطرسة الهمجية تدعونا إلى التصدي لكل هذه المخططات والى تحمل المسؤولية التاريخية لإفشال هذه الخطط والبرامج العدوانية .

كما يرى المؤتمر أن الطليعة في مجتمعنا العربي ، ومنها الأدباء والكتاب ، تقع عليها مسؤولية المساهمة في

التحصن والتحصين بالوعي المعرفي ضد كل أشكال الاختراق الفكري والثقافي ، وخلق ثقافة تحافظ على خصائص الأمة وثوابتها المبدائية وتعالج قضاياها بوسائل خلاقة ترتكز على الأصالة والمثاقفة والإبداع بهدف إستشراف مستقبل أفضل .

والمؤتمر إذ ينظر إلى حقيقة أن كل مواجهة لأي من التحديات التي تواجه الأمة تحتاج إلى أمن عربي متبادل و جسور من الثقة تمتد بين الأقطار والأنظمة والحكام ، وإذ يأخذ بالإعتبار حقيقة أن كل مواجهة مع أعداء الأمة وكل استجابة للتحديات والإستحقاقات التي تواجهها تحتاج الى طاقة الأمة بكاملها والى تكامل جهود أقطار ها ، يعلي شأن الحقيقة الثابتة التي يشير اليها استقراء الدروس والتجارب العربية السابقة ، حقيقة أنه لا يوجد خلاص قطري أو اكتفاء ذاتي قطري في أي مجال ومن أي نوع ، فالخلاص والإكتفاء الذاتي يكونان قوميا ... وحسم الصراع العربي الصهيوني لمصلحة الأمة بتحرير فلسطين كلها يحتاج الى قوة عربية ومسؤولية قومية .

واستنادا إلى ذلك وانطلاقا منه يؤكد المؤتمر أهمية التضامن العربي المتين والاحترام والأمن العربيين المتبادلين ، وضرورة اقامة جسور الثقة بين الأقطار والأنظمة العربية والحكام العرب لوضع استراتيجية عمل عربية متكاملة تغير الواقع العربي البائس الذي ينعكس على أبناء الأمة وقضاياها ومصالحها . و يدعو إلى الحكومات العربية بكسر الحصار المفروض على العراق عربيا : رسماً وشعبياً وبشكل فوري ، كما يدعو القوى المؤمنة بالحق والعدل إلى الوقوف الفوري للعدان الأمريكي- البريطاني الصهيوني على العراق كما يطالب المؤتمر بالوقوف الى جانب الجماهيرية الليبية لإنهاء الحصار المفروض عليها ورفعه كلياً والوقوف الى جانب السودان بمواجهة الهجمة العسكرية المدعومة أميركيا والمؤامرات التي تهدف إلى تفتيت وحدته وعزله إقليميا ودوليا ، كما الدول العربية الشقيقة لانتهاج مزيد من سياسة الإنفتاح تجاهه سياسياً وثقافيا ، ووضع حد للتهديد المستمر وللهيمنة الأمريكية على المنطقة .

ويدعو المؤتمر أيضا ، جميع دول الجوار لوطننا إلى احترام سيادة أمن الأقطار العربية المجاورة لها وعدم الانجرار وراء المخططات الأمريكية والصهيونية الرامية إلى افتعال الأزمات لزعزعة الأمن في المنطقة عبر إثارة مطالب حدودية ومكاسب وهمية في وطن الأمة الواحدة . كما يدعو الى علاقات حسن جوار تقوم على الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة بين أقطار الوطن العربي و البلدان الإسلامية المجاورة وفي هذا السياق يدعو إيران إلى إعادة الجزر العربية الثلاث " طنب الكبرى والصغرى وأبي موسى " إلى الإمارات العربية المتحدة في خطوة تنهي الخلافات وتعزز الصلات العربية الإيرانية وأمن الخليج العربي ، كما يدعو إسبانيا إلى إعادة مدينتي " سبتة ومليلة " إلى تراب الوطن المغربي الأم ، والتعجيل في حل مشكلة الصحراء ، وتصفية الوجود العسكري الأجنبي بالوطن العربي والقواعد الأمريكية والبريطانية وغيرها في الخليج العربي .

## قضيــة فلسطـين

تحقيقا للأهداف والثوابت المبدئية التي يتمسك بها الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ، واستمرارًا لنهجه ورؤيته للصراع العربي الصهيوني والمشروع الصهيوني - الاستيطاني و مخاطره ، فإن المؤتمر :

1- يؤكد المواقف الواضحة التي كرستها مقررات المؤتمرات السابقة حول الصراع العربي الصهيوني بوصفه صراع وجود وليس نزاعاً على حدود ، وأنه لا يمكن التعايش بين الكيان الصهيوني الذي يعمل على مشروع استعماري - استيطاني عنصري يستهدف الأمة العربية كلها انطلاقا من فلسطين ، كما يستهدف أقطارها ومشروعها النهضوي المنشود، وأبناءها وعلى رأسهم أبناء الشعب الفلسطيني: ويؤكد أن حسم هذا الصراع مسؤولية قومية ، ولن يتم ذلك إلا بإمتلاك قوة منقذة على أساس مكين من العلم و الإيمان والعمل بهما معاً .

2- حسم الخيارات العربية باتجاه إختيار التحرير ووقف مسيرة التنازلات المنهكة الممزقة منذ قمة فاس باتجاه

الحلول السلميّة التي، ثبت أنها تعني الإستسلام المقنّع بصور السلام .

3- العمل على اسقاط اتفاقيات الاذعان: كامب ديفيد - أوسلو- وادي عربة، ورفض كل ما بني عليهما ونتج عنهما من اعتراف بالعدو وتطبيع للعلاقات معه.

4-دعم انتفاضة الأقصى دعماً عربيا وإسلامياً مطلقا واحتضانها شعبيًا ورسميا ، وأذكاء شعلتها بالدعم والمساندة لتصعيد أشكال الكفاح الشعبي المسلح بما يعزز الصحوة العربية ، وبما يضع العرب كلهم بمواجهة استحقاق التحرير ومسؤولياتهم حيال ذلك ليعدوا أنفسهم وبلدانهم لهذا الاستحقاق .

5- تعزيز النهج التحريري في الإنتفاضة حتى لا تكون مجرد وسيلة لتحسين شروط التفاوض وتحريك المسارات التفاوضية ،وجعل الانتفاضة طليعة عمل من أجل التحرير .

6- فضح ممارسات العدو العنصرية - النازية ، والتركيز على أهمية القدس ومكانتها وموقعها القومي والديني والتاريخي بوصفها رمزا لقضية فلسطين كلها ورمزا عربيا وإسلاميا شاملا.

7- والعمل على تحقيق تضامن عربي فعال على مواجهة المخططات الصهيونية والإستعمارية ،والمواقف المتخاذلة والجائرة للمنظمات الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة التي بات واضحا أنها تكيلُ بمكيال الإرادة الأمريكية المنحازة تماما لمصالح العدو الصهيوني .

وثمة وسائل عديدة تملكها الحكومات لدعم انتفاضة الشعب الفلسطيني منها إلغاء الإتفاقيات المبرمة مع العدو الصهيوني وقطع أشكال التعامل كافة والتطبيع معه ، وإعادة تفعيل مكتب المقاطعة العربية لمقاطعة بضائع العدو الصهيوني والشركات الصهيونية في كل مكان من العالم وتعزيز العلاقات بين الشعوب على أساس متين ، وإلغاء القوانين التي تحرم الدعوة إلى المقاطعة أو تضعضعها ، ومقاطعة السلع الأمريكية والاستمرار في تكريس التعبير عن احتضان الشعب العربي وشعوب العالم الإسلامي للانتفاضة بكل الوسائل ومنها المسيرات والمظاهرات والتبرعات ، والعمل على أن تصبح الإنتفاضة مقاومة منظمة -مسلحة قادرة على الحاق الأذى بالعدو ، وعلى جعل قضية تحرير فلسطين حاضرة في الآداب وحاضرة في السياسات والإستراتيجيات العربية.

8- يؤكد المؤتمر رفضه القاطع والدائم لأشكال التطبيع مع العدو الصهيوني كافة ، وإدانته كل من يمارس هذا التطبيع سواء أكانوا أفراد أو مؤسسات أو حكومات ، وفي الوقت نفسه يرحب بعودة هؤلاء الذين أعلنوا تراجعهم عن مواقف تطبيعّية اتخذوها سابقا إعلانا عمليا واضحا منهم يسهم في تدعيم الصفوف الوطنية والنضال القومي وإضعاف الآختراق الثقافي الذي يركز عليه العدو وترويجه لما يسمّى " ثقافة السلام بدلا من ثقافة الحرب " ليوحي بأنه ينشد السلام في حين أنه يرمي إلى إلغاء الذاكرة والوجدان العربيين بما يكرس الوجود الصهيوني.

والمؤتمر إذ ينهي أعمالهُ بنجاح تام يكرر شكره للسيد الرئيس صدام حسين رئيس جمهورية العراق على رعايته الكريمة لأعماله ، وللعراق قيادة وشعبا ، وللاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق لما بذلوه من جهد في الاعداد للمؤتمر والسهر على إنجاح أعماله ويتوجه المؤتمر بتحية إجلال وإكبار لشهداء انتفاضة الأقصى المباركة ، ولشهداء العراق والأمة العربية ، ولشعبنا البطل الصامد في فلسطين المحتلّة ،الذي يتصدى للاحتلال باللحم العاري والحجر . ولأهلنا الصامدين في الجولان العربي السوري المحتل . و للصامدين والمقاومين في المحتل من جنوب لبنان.

**عاشت الأمة العربية**

**عاشت فلسطين حرة مستقلة**

**والنصر لأمتنا بعون الله**

**بغداد في 2001/1/25**

# كتابة الأزمة أو المطلق المستحيل
## قراءة سجالية في كتاب أبي يعرب المرزوقي
## «في العلاقة بين الشّعر المطلق و الإعجاز القرآني»

عادل خضر*

في بعض الدروس التي ألقاها السيد Raymond Aron بالكولاج دي فرانس Collège de France جمعت بعد ذلك في كتاب عنوانه دروس في التاريخ Leçons sur l'histoire يقول ما تعريبه: «الفلاسفة هم أناس يفهم بعضهم البعض أعسر فهم، لأن لكل واحد منهم لغته. ويتفق لـي أن أقرأ عشرات الصفحات لفلاسفة شبان موهوبين مثل Derrida دون أن أفقه شيئا مما يقولون »(1). وإذا كان التفاهم بين الفلاسفة عسيرا فإنه بين الأدباء والفلاسفة أعسر لكنّه ليس مستحيلا . ولا نلمح هاهنا إلى ذلك التقارب القديم الذي حصل في شخص أبي حيان التوحيدي حين لقب تجوزا بفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ، فهذا التقارب مفتعل تأدبت فيه الفلسفة وامتصتها منظومة الأدب ، فلم يبق منها إلا ألفاظها ومفاهيمها بعد أن زالت رسومها وذابت الحكمة في زخارف العبارة وسحر البيان (2)،وإنما أشير إلى وضع القراءة الرّاهن حيث يجد القارئ المتأدّب (وهو محل أشغله الآن في هذا السياق)والمقروء الفلسفي وأعني كتاب أبي يعرب المرزوقي : في العلاقة بين الشعر المطلق والإعجاز القرآني ) نفسيهما، وقد زج بهما في مأزق اللاّتفاهم التقليدي ، منفصلين عن بعضهما بعضا بمسافة لا يمكن تقديرها إلا بعمق ما بين الأديب والفيلسوف من سوء الفهم والإفهام .

وإن كان لزاما علينا أن نبحث عن أسباب لهذا الحاجز الذي يجعل تبادل الفهم والإفهام أمرا عسيرا فإنه ينبغي البحث عنها في طرائق النظر الفلسفي والإدراك الأدبي. فشتان بين من يحلق في علياء الكلّيات وبين من وضع يده في خميرة الجزئيات . ولأجل ذلك أمسى طيّ المسافة بين منطق الكليات وأنظمة الجزئيات من الأمور المستعصية ، حتى بات تقليصها إمكانا لا يتحقق في زعمنا إلا إذا توسل بالسجال.

ولماّ كان كل سجال يقتضي بالضرورة تعارض وجهتي نظر تغذيه مسافة هائلة من سوء الفهم فإن ماسيظل محركا لقراءتنا السجالية هو موقع الأديب الذي كناّ نشغله قبل أن يفتكه منّا الفيلسوف مداورة منذ مقدمة الكتاب باسم الحق الطبيعي في الكلام(4)، وباسم كفاءة تطبيبية تشخص أدواء في الأدب مازال الأديب – من منظور الفيلسوف – يجهل أسبابها ودواء ها(5).

وانطلاقا من هذا الداء الذي يفترض الفيلسوف وجوده في الأدب والإبداع ويبرهن على استفحاله باستدلالات شتى ، يمكننا أن نوضح الرّهان الحقيقي المتخفي في أعطاف العبارة التي صغنا بها العنوان .

ليس المقصود من **كتابة الأزمة (6)** سوى قرائن الداء التي تنخر الجسد الأدبي فتتركه متدهورا ونهبة انحطاط لا حدّ له . وهي قرائن لا يستدل الفيلسوف على وجودها ببرهان ولا يعمل على تشخيصها كما تشخص في العادة الأدواء ، وإنما يصادر على وجودها ويكتفي بتقريرها، فيبني بها مقدماتها ويركّب منها استدلالاته وبراهينه ويولد النتائج دون أن يدور بخلده لحظة أنّ قرائن الداء كما شخصها أو



* أستاذ مساعد بكلية منوبة للآداب

كما تراءت له قد لا يكون لها وجود فعلي.
فهي إحدى اثنتين :
- إما أن تكون الأزمة موجودة فعلا في الموضوع (أي الشعر والجسد الأدبي عموما ) وهذا يحتاج في نظرنا إلى براهين وإثباتات مستمدة من المعطيات الملموسة . ولمّا كان الكتاب خلوا من كلّ عمل إجرائي يتخذ من نصوص الشعر والنظرية النقدية الشعرية مدونّة لتشخيص الأزمة وفحصها فإننا نميل إلى اعتبار الأزمة موجودة في المحمول فقط ، أي فيما يسنده المرزوقي إلى الشعر قديمه وحديثه من أدواء وموت وجمود وقتل وهمود وفساد وغير ذلك من المحاميل السالبة للشعر عافيته وحيويته .

-وإما أن تكون الأزمة أسطورة من جنس الأساطير التي روجتها المؤسسة الأدبية واستقرت في الوعي الأدبي بواسطة مؤسسات أخرى منها التقبل النقدي نفسه والمؤسسة التعليمية أساسا صانعة الحس المشترك . ومن المفارقات أنّ ما ينتقده المرزوقي ويؤاخذه الأدب والأدباء (ويقصد طائفة الشعراء والنقاد ومنظري الشعر) هي ذاتها المقولات التي يفكر بها ويستخدمها بكل وثوقية في خطابه دون أن يعمل على التفكير فيها أو ضدها.

إن مانعنيه بكتابة الأزمة ليس مظاهر الأزمة كما حاول المرزوقي أن يحملنا على الإعتقاد فيها وفي وجودها بشتى وسائل الإقناع المتاحة له ، ولا مارشح من خطابه من استعارات باتولوجية تضافرت مع طريقة في التلفظ ذات نبرة كارثية ما فتئت تذكرنا بأن زماننا كسالف الأزمان بحث عن خلاص مستحيل، وحده الفيلسوف يعرف السبل المؤديّة إليه(7) إنما الأزمة كامنة في هذه المفارقة بين الشعر بوصفه عملاً مخصوصا من أعمال الكلام البشري الذي ينجز باللّغةِ وفي اللغة فقط ، وبين صفة المطلق الملحقة بالشعر. فإذا كان المطلق «هو المستقل عن المشخصات ، والمعينات ، والمخصّصات (....) التام أو الكامل المتعري عن كل قيد أو حصر أو استثناء(...) لا يتوقف تصوره ، أو وجوده على شي ء آخر غيره ، لأنه علّة وجود نفسه "(8) فإن عبارة الشعر المطلق تعني الشعر الذي أمسى جوهرا خالصا محضا ، لأنه من ناحية قد تجرد من كل القيود التي كانت تمثلها اللغة ، بصفتها جزءًا منه لا يتجزأ ، ولازما من لوازمه يستحيل عليها أن تنفكّ من ماهيته ، ولأنه من ناحية أخرى قد تحرر من الإكراهات التي كان يخضع لها العقل عامة ، فتمنع الفكر البشري من أن يتخطاها والإدراك من أن يتجاوزها والمعرفة من أن تتغافل عن شروط إمكانها وللخروج من إسارهذه المفارقة ، نعتبر من جهتنا أنّ كل نظرية سواء كانت فلسفية أم جمالية أم شعرية أم علمية ... تدعي بأي تسمية من التسميات تحررها من قيود اللغة التي هي ذاتها حدود المعرفة والفكر ، إنما هي شكل جديد من أشكال التصّوف(9) إن كانت تعتقد في صدق ما تدعيه ، أو شكل ممكن من أشكال الخيال العلمي والأدبي والفلسفي إن كانت تعتقد أن ما تدعيه مجرد إمكان أو حالة من حالات الأشياء Un état de Choses لا وجود لها إلا في عالم ما من بعض العوالم الممكنة (10). ورغم أن المرزوقي يعارض كل المعارضة هذا الموقف لأنه يبطل تماما نظريته في الشعر المطلق والإعجاز القرآني ، وحجته في ذلك أن " **كلّ ما يمكن للعقل الإنساني أن يتخيله أم أن يبتدعه يبقى دائما محدودا بأفق لا يعدوه هو تلك الأيات** ( ويقصد الآية القرآنية التي هي آية الآيات ودستور الاعتبارات والتعبيرات والمنبع الأصلي لكّل إبداع والغاية التي لا تدرك في السعي الدائب إلى التّعبير عن الوجود ) **التي ليست محدودة إلا في التصور الساذج القائل بنظرية المطابقة** (وهو موقفنا ونعترف بسذاجتنا ) **والحلول** (وهو موقف المرزوقي الذي يجحده لفظا ويثبته مداورة

بنظريته موضوع الحال )" (المرزوقي ،ص124)، فإننا رغم معارضته ، وما كاله لممثلي نظريتي المطابقة والحلول من "مديح "، فإننا نصر على اعتبار نظريته دون أساس أنطولوجي يسندها، إ ضافة إلى كونها لم تشيد على النّحو الذي جرت به العادة في تشييد النظريات .

ولئن صرح المرزوقي في المقدمة بأن أسلوب عمله هو " من جنس العمل الفرضي الاستنتاجي في المعرفة النسبية التي لا يريد العلم تجاوزها ولا يستطيع حتى إذا أراد " (المرزوقي،ص 6) فإنه لم يلتزم بهذا الأسلوب لأن العمل الفرضي الاستنتاجي يفرض على كلّ نظرية "وإن كان موضوعها علماً مائعا لا صلبا كعلم الشعر والنقد والأدب أن تشيد" في خطاب يمكن تصوره كبنية تفسيرية تربط عددا من الظواهر التجريبية بعدد من المفاهيم والمسلمات والمبادئ عن طريق جهاز استنتاجي أكسيومي . وينضاف إلى هذا كله شرط آخر يتمثل في أن تكون القضايا المكونة لخطاب النظرية قابلة للتكذيب Falsifiable والتبكيت Réfutable ومعنى هذا أن كل نظرية مهما كان موضوعها المعرفي تتألف من ثلاث مجالات: مجال الوصف ، ومجال التفسير ومجال الاحتجاج.

ولما كان عمل المرزوقي قائما على البرهنة " التي هي في الأساس تاريخية تأويلية للأسس الفلسفية وليست طبيعية تحليلية لما يزعم علما للشعر والنقد "(6) فإن هذه الاستراتيجية قد أوهنت خطابه وجعلت المجال الثالث من خطاب نظريته في الشعر المطلق والإعجاز القرآني ونقصد مجال الاحتجاج . مهيمنا حتى طمس مجالي الوصف والتفسير تقريبا .

إن نظرية المرزوقي عائمة في بحر من الاحتجاجات ، فهو ينفي كل مايعارض نظريته . من ذلك أنه لدحض نظريتي التطابق والحلول يستخدم عدة طرق في الحجاج ، إلا أنها على تنوعها تضافرت لتحقيق نتيجة واحدة هي إثبات نظرية الشعر المطلق بسلب المحاميل المكونة لمحتوى النظريات المخالفة . وهذه نماذج منها :

1-فكل ما يمكن للعقل الإنساني أن يتخيله أو أن يبدعه يبقى دائما محدودا بأفق لا يعْدُوه هو تلك الآيات التي ليست محدودة إلا في التصور الساذج القائل بنظرية المطابقة والحلول "(ص124)

2- " فالمقابلة بين الخيال والواقع والمجاز والحقيقة ، والزعم بأن الخيال قادر على تجاوز الواقع والمجاز والحقيقة ليس إلا وهما الفصام الذي يؤسس هذه المقابلات ، ومصدره تصور الوجود الحقيقي محدودا في ما نعلم منه: أعني المطابقة والحلولية، لكونهما تشترطان خصم ما يعارض المطابقة وينافي الحلول " (ص124)

3-"ومما يكذب الموقف المستند إلى التنافي والإستثناء هو أن المرء يلاحظ أنّ ما هو خيال اليوم واقع غدا وما هو واقع اليوم خيال غدا وكذلك في جانب الحقيقة والمجاز . لذلك ، فإن الفصل بين هذه الوجوه علته القول بالحقيقة المطابقة وبحصر الوجود في الإدراك "(ص124)

4- "وكل نفي لهذا الإعجاز ليس إلا نتيجة للقول بالحقيقة المطابقة ، صراحة أو ضمنا " (ص125)

5- " ولعل فشل المعري هذا علته محاولة الجمع بين الرّد البديعي ( الرّد على تحدّي الشكل القرآني ) والموقف التأويلي اللاهوتي الفلسفي الصوفي القائل بالحقيقة المطابقة التي يتصورّ نفسه حاصلا عليها بعقله الكليل والذي جعله يحول عملية الإبداع المزعومة إلى عملية دحض العقائد بدلا من الإبداع الذي هو محاولة التعبير المدرك لقصوره عن إدراك المطلق " (ص19)

6-"وأعجب الأمور وأغربها أنّ القائلين بهذا الرّأي هم دائما من أجهل الناس وأقلهّم تمكنّا في فنون عصرهم وعلومه» (ص124).

7-" ولا يمكن أن نفهم مسألة موت الشعر وانبعاثه وما

يتهدده الآن إلا بدراسة المسائل الخمس التالية دراسة عاجلة نستخرج منها مقومات مفهوم الشعر بما هو توجه شطر شهود الإعجاز الإلاهي ووظائفه التوجيهية(....) وقد رتبنا هذه المسائل بحسب التدرج نحو مفهوم الشعر المطلق الذي لن يتم تحديده وتحقيقه إلا في ما نفترضه مرقاة إلى سر الإعجاز في القرآن ، أعني الشّعر المطلق الذي يوجّهنا نحو شهود الإعجاز ، دون أن نصل إلى إداركه الإدراك التام (ص24) تبدو هذه الحجج مقنعة في الظاهر وقوية . ولكن ألايكون الحجاج إذا قوي دليلا على ما في النظرية من وهن . آية ذلك أن النماذج التي عرضنا من الحجاج تتفق جميعا في كونها في حجج دحض و تبكيت وتكذيب ونفي وسلب . ومعنى ذلك أن نظريّة المرزوقي تظل مقبولة إذا استمر التعبير عنها بألفاظ سلبية أي بكل الألفاظ التي ليست مطابقة وحلولا . فقد استخدم الحجاج لسلب النظريات المخالفة لنظرية المرزوقي مضامينها بغية إثبات نظرية الشعر المطلق والإعجاز القرآني . ولكن عندما يعمل على تفسير نظريته بألفاظ موجبة ، ويعبر عنها بمحامل موجبة لا يجد المرزوقي ما يقوله لنا عن الشعر المطلق سوى " **أنه يوجهنا نحو شهود الإعجاز، دون نصل إلى إدراكه الإدراك التّام** ».**فالشعر المطلق وسيلة لإدراك الإعجاز «لذلك كان إدراك حدود الإدراك غاية الإدراك ،وبداية الفهم الحقيقي لآيات الوجود مرقاة للشهود بل أنّ الشعر ليس إلا التعبير عن هذا الإدراك الأسمى"** (ص**125**). وإذا صح فهمنا فإن المرزوقي يجعل العلاقة بين الشعر المطلق والإعجاز القرآني هي علاقة وصل أو اتصال بما أنّه يجعل مضمون الشعر المطلق هو المعجز القرآني فهو حده الأقصى والممتنع L'inaccessible في الوقت نفسه، ويجعل للإعجاز القرآني شكل الشعر المطلق ، فهو مرقاة إلى إدراك المعجز. وبهذا يكون الشعر المطلق حدا أوسط بين الإعجاز القرآني الممتنع عن الإدراك لأنه لا متناه " فليس يمكن لأي إنسان أن يستوفي التعبير عن أي جزء من أي آية من الآيات فضلا عن آية الآيات لكونها تضيف ما لا يحاكى، أعني العبارة عن الفعل الإلاهي اللامتناهي بالفعل "(ص125)، وبين الفنّ الإنساني المحدود المتناهي ، إذ " لا يمكن لأي فنّ إنساني أن يضاهي أيا من الآيات "(ص124).

إن كان هذا مايقصده المرزوقي من مفهوم الشعر المطلق فإننا نتساءل بم يتميز هذا المفهوم عما قاله السّلف عن الإعجاز القرآني. وهو إعجاز لا يثبت خارج دائرة الإيمان فلا يمكن إثباته بالعقل مثلا، لأن ما توسل من المطلقات بغيره كاللغة صار في عداد الظواهر وفقد كلّ إطلاق . وكل محاولة تسعى إلى بيان أن الذي تشكل باللّغة قد إنقلب إلى معجز أو مطلق بدل أن يكون نسبيا هو في اعتقادي دعوة إلى أن نفكر في نطاق بعد آخر يتجاوز البعد الرّابع قد يكون بعد السّر والأعاجيب ، هذا إذا نظرنا إلى السّر Mystère على أنه نتيجة بلا مقدمات والأعجوبة نتيجة بلا مسارات(11)ولكن في كل ذلك نقر بعجزنا على رؤية شجرة الزعرور تلد إجاصا كما يقول المثل الإسباني .

يستحيل بناء أية نظرية إلا بنقض سابقة أو إعادة تأويلها ، كما يستحيل بناء عالم ممكن إلاباعتماد عناصر من العالم الواقعي ، ونظرية المرزوقي في معرفة المعجز وادراك المطلق هي تحوير لبعض عناصر المعرفة الواقعية ، تلك التي أقرّها الحس المشترك ، مثلما أنّ نظريته في الشعر المطلق تستند إلى تحوير فلسفي لمقومات الشعر المنجز بقطع النظر عن قيمته . فالشعر المطلق نظرية لا يمكن أن توجد إلا في عالم ممكن كعالم أفلاطون المثالي ، دليلنا على ذلك أن المرء قادر باللغة على أن ينشئ من الأقاويل ماهو خطأ وصواب وصادق وكاذب . والفرق بين نظريات الشعر التي ينتقدها المرزوقي ونظريته في الشعر المطلق هو كالفرق الذي

بين القضايا التي لها قيمة ماصدقيةValeur de vérité من تلك التي ليست لها قيمة ماصدقية . وعندما نقدر أن نظرية الشعر المطلق نظرية واقعية وبشرية ولها قيمة ماصدقية وقابلة لأن تصدق على الأقاويل الشعرية المنجزة حينئذ يمكن أن نأخذ ها مأخذ الجدّ . وما عدا ذلك فإن سذاجتنا تمنعنا من إدراك ما لايدرك . وتلك قصة أخرى ، هاك تفصيلها .

إذا كانت تفّاحة نيوتن قد قدحت في ذهن الفيزيائي العظيم فكرة الجاذبيّة وأفضت به في آخر المطاف إلى تشييد نظرية فيزيائية لا إلى إنشاء نظرية في التفاح، فإن نظرية أبي يعرب المرزوقي في الشعر المطلق لم تفض به إلى تشييد نظرية في الجاذبية ، وإنما إلى تشكيل الأسس الفلسفية التي نتجاوز بها قوانين الجاذبية وننفلت في الوقت نفسه من عقال القوانين الفيزيائية التي بفضلها نتمكن من إدراك نظريته في الشعر المطلق والإعجاز القرآني .

فإذا كان الدماغ البشري الذي نفترض أنّنا به نفكر هو عضو أرضي مرتبط بقوانين كوكبنا الفيزيائية ارتباطا يجري على كل عضو من أعضاء الجسم ، فإن الشروط اللازمة التي من دونها لايتيسر إدراك الشعر المطلق أو المعجز القرآني تفرض عليه ( أي الدِّماغ )أن يتخلص من هذه القيود الأرضية ، وأن يتسلح بكل قدراته التخيلية والتجريدية التي تتيح للفكر الإنساني أن يحلق خارج مدار جاذبية الأرض وفي نقطة معينة من الكون حيث يتمكن من الوقوف على كنه هذا الشعر وحقيقة الكلام الرباني وآيات إعجازه . وفي هذه الحالة فقط يمكن للفكر البشري الأرضي الأصل أن ينقلب إلى روح خالصة ، أوعقل متخلص من طينيته ، فيضحـي شبيها بتلك العقول الناشئة بالفيض في بعض نظريّات الفلاسفة الإشراقيين .

وبعبارة أخرى إذا كان " العقل الإنساني دون العلم الإلاهي "(ص37)، كما يسلم بذلك المرزوقي فإن إدراك العلم الإلاهي يتطلب عقلا من نوع خاص لا يفكر بمقولات الحس المشترك كالسببية ومبدأ الهوية والثالث المرفوع وإنما بمقولات أخرى تشبه على سبيل المثال مقولة الذوق عند المتصوفة أو مقولة الحدس أو شيئا من هذا القبيل، وفي كلّ الأحوال يضعنا هذا الإشكال أمام خيار لا مفرّ منه:

- إما أن يطابق عقلنا الإنساني المتناهي العلم الإلاهي اللاّمتناهي ، وحينئذ نقع في اشكالي الحلول والمطابقة اللذين ارتضاهما المتصوفة والفلاسفة ويرفضهما المرزوقي من جهته لامتناع تحققهما . ونراهما من جهتنا ممكنين إذا تحلينا بكثير من خصال الخيال العلمي أو الأسطوري .

-و إما أن تمتنع المطابقة بين عقلنا الإنساني المتناهي والعلم الإلاهي اللامتناهي ، وفي هذه الحالة نواجه معضلة يمكن أن نصوغها على هذا النّحو :

كيف يمكن للمعرفة البشرية أن تدرك ما لايدرك ؟ كيف يمكنها إدراك المعدوم والمجهول ؟ وإذا كان كل موجود معقول وكل معقول يدرك وينقال ويحيط به اللفظ فيضحي بالضرورة معقولا يمكن قوله . فهل نعتبر أن ما لا يدرك هو في المستوى اللغوي من جنس ما لا ينقال . Ineffable أم من شاكلة مالا يقال Indicible ؟

يضعنا هذا السؤال أمام مشكلين . وقبل طرقه ينبغي أن نحدد الفرق بين ما لاينقال وما لا يقال أماّ ما لا ينقال فيخص الموضوع لا المحمول .وسبل إدراكه تتجاوز حدود العقل . ومن ذلك أنّ البلوغ إليه قد يكون بالنبوة أوبالرّؤيا الصّادقة أو بالجنون أو بالرياضة الروحيّة وغير ذلك من السبل الانخطافيةLes voies extatiques أو الطّرق المريديةLes voies initiatiques أماّ إذا عبر عنه باللّغة صار معقولا وترتب في سلك الظواهر ، وفقد بذلك الشرط ما كان به مطلقا متعاليا . ومثال ما لا ينقال

ماأثاره كلام الله في علم الكلام من أسئلة : أهو قديم أم مخلوق ؟ أو مسألة «أم الكتاب » والقرآن : أهما شيء واحد أم هما أصل ونسخة ؟ وقد ولدت هذه المسألة بالذّات تصورات مختلفة في التيولوجيا الإسلامية أهمها نظرية تطابق الأصل «**أم الكتاب**» بالنسخة المنزلة القرآن وتقوم نظرية التطابق على لعبة المرائي

Jeu de miroirs بين الصورة السفلية للنّص القرآني المنجب بالتنزيل ، وبين الصورة العلوية للأصل الإلاهي ،«**أمّ الكتاب** » الكتاب الغائب بتعاليه ، اللامقروء

l'illisible المنيع المتأبّي L'inaccessible على كل قراءة لأنه لا نهائي «وذكر بعضهم أنّ أحرف القرآن في اللوح المحفوظ كلّ حرف منها بقدر جبل قاف ، وأن تحت كلّ حرف منها معاني لا يحيط بها إلا الله (12)، إلا أنها لعبة ما فتئت تثير الأسئلة عن المفارقات العجيبة بين كلام الله القديم والمخلوق في الإسلام أو كيفية تجسيد كلمة الله في المسيح ، أو الكلمة التي أصبحت جسدا في المسيحية .فما لا ينقال هو الذي يمتنع وجوده ، ويعبر عنه بمنطق المفارقات والأسئلة المتحيرة من قبيل " كيف يمكن للامنتهي أن يصبح منتهيا، وغير القابل للتأنيس أن يتكوّن في رحم إمرأة والأبديّ أن يصبح جسدا ؟ (13). أليس ما لا ينقال هو المعجز نفسه وقد انخرط في أنظمة السرّ والأعجوبة بعد أن خرج من دائرة العقل ؟

أماّ ما لا يقال فيتعلق في نظرنا بالمحمول دون الموضوع . وتعريفه هو كلّ ما يقال بسبل السّلب فقط كقولك في وصف محتويات الجنة : فيها ما(لا) عين رأت و (لا)أذن سمعت . فإذا ترجمته بسبل الإيجاب امتنع ، لأن مرجعه الفراغ ، وكل ماكان الفراغ له مرجعا لا يقال ، وكل ما لا يقال لا معنى له . وليس لنا على ما لا يقال مثال سوى كتاب الحارث المحاسبي **كتاب التوهّم** . وهو من الكتب المنتمية إلى الأدب الأخروي، يصور رحلة بالوهم بعد الموت والبعث ، في النار والجنة على غرار رسالة الغفران ، تنتهي عند العرش ، حيث تتجلى الذات الإلاهية لقول المتصوفة بإمكان رؤيتها . والغريب الطريف أنّه في لحظة التجلّي يسكت المتكلم وينطوي الكتاب على سرّه، ويتبخر الوهم ترى لم انعدم اللّفظ ؟ جوابي بسيط . اللغة لا تسمّي الكمال مثلما يستحيل عليها تسمية العالم في كليته . وكل ما آل إلى نقصان أعرب عنه بالكلام . ولأمر ما كان الكلام جرحا ! أليس الكلام هو ذلك العنف الذي نجريه على الكائنات حتى تبين أسماؤها ؟ أليس الاسم آخر ما يبقى منّا ؟ أليس الاسم زفيرنا الأخير ؟

لنعد بعد هذا الاستطراد إلى إشكالنا المؤجّل : هل نعتبر أنّ ما لا يدرك في المستوى اللّغوي من جنس ما لا ينقال أم من شاكلة ما لا يقال ؟

يدل ما لا ينقال على أنّ ما لا يدرك ليس بالضرورة معدوما وإنماً هو ممكن الوجود "تضيق عنه العبارة " كما يقول المتصوفة . ويمكن أن نضع في خانة ما لا ينقال طائفة الكائنات الموجودة في بعض العوالم الممكنة كالملائكة والجن والغيلان وسكان كوكب مارس في بعض أفلام الخيال العلمي ، كما يمكن أن نضم إلى ما لا ينقال طائفة الكائنات الموجودة في العالم الواقعي ولكن العلم البشري لم يطلها بعد كالكواكب المنتمية إلى أنظمة شمسية أخرى، والكائنات التي تعيش بيننا ومازالت في عداد المجهول والفيروسات التي لم تسمّ بعد والجراثيم التي تنتظر مجاهر أقوى من مجاهر اليوم لترى النور فتخرج من طور المجهول إلى طور المعلوم لا من حال المعدوم إلي حال الموجود . أما لا يقال فيضعنا مباشرة أمام إشكال فلسفي قد سطر كانط Kant معالمه وعمقه فتغنشتاين Wittgenstein تعميقا (14). فمع كانط نتعلم نهائيا استحالة معرفة المطلق أو المعرفة التي تكون علاقتها بالواقع التجريبي منقطعة تماما . وقد وجه

سؤاله" ما الذي يمكنني معرفته ؟-? Que puis-je connaitre " ضربة شديدة إلى الميتافيزيقا ودشن به عهدا للعقلانية جديدا رسمت فيه حدود المعرفة بوضوح : ما يعرف وما لا يعرف. أمّا مع فتغنشتاين فتعلمنا فلسفتة كيف تطرح قضايا القول خاصة مسألة مايقال Le dicibe وتصاغ هذه المسألة في السؤال التالي " ما الذي يمكنني قوله ؟- Que puis-je dire "أو" ما الذي بمقدوري قوله دون أن أقع في اللامعنى؟

Que suis- je en mesure de dire sans tomber dans le non sens?

وقد شغل هذا السؤال كما هو معلوم الكثير من المدارس الفكرية والفلسفات الحديثة كالفلسفة التحليلية وفلسفة الوضعانيين الجدد ومدرسة أكسفورد والفلسفة التأويلية وغيرها ....وبين ما يدرك ومالا يدرك ، وبين ما ينقال وما لا يقال يتنزل مشروع المرزوقي وهو تأسيس العلاقة بين الشعر المطلق والإعجاز القرآني ، أو تشييد الأسس الفلسفية لنظريته في الشعر المطلق . وهي نظرية تحتمل أمرين :

-وما أن تكون نظرية تؤسس لما يدرك ولا ينقال ، وفي هذه الحالة نكون أمام نظرية من نظريات الخيال الفلسفي قياسا على الخيال العلمي ، وأمام شكل من أشكال التصوف لأن نظرية المرزوقي لا يمكن أن تتحقق إلا في بعض العوالم الممكنة .

- وإما أن تكون نظرية تؤسس لما لا يدرك ولا يقال ، وفي هذه الحالة نكون أمام نظرية مستحيلة لا تطيقها وسائل إدراكنا ومحدودة بحدود اللّغة .

إننا نميل إلى الاحتمال الأول فهل يميل المرزوقي إلى الاحتمال الثاني ؟

وبعد لقد بدأت حديثي بقول للفيلسوفـ Raymond Aron ،و أودّ أنّ أختمه بقول للفيلسوف Ludwig Wittgenstein مقتطف من آخر فقرة من فقرات كتابه البكر Tractatus logico-philosophicus حيث يقول فيها أن يبتعد عن النشاط الفلسفي طيلة عشرات :«-ما لا يمكن الكلام عنه، ينبغي الصمت عنه »

Ce dont on ne peut parler, il faut le taire (15)

وهو بهذه الفقرة يدمر فلسفته الخاصة ويجهز في الوقت ذاته على كل الخطابات التي لا معنى لها ، معتبرا صنيعه ذاك شرّا لا بدّ منه .

ولكن لماذا أستحضر هذا القول الآن وفي الخاتمة ؟ غايتي من الإستشهاد بـ Wittgenstein هو أن أقول ما يلي : إن ما استفدته من كتاب أبي يعرب المرزوقي في العلاقة بين الشعر المطلق والإعجاز القرآني هو أن التفكير يبدأ بالتفكير في وسائل التفكير . وهذا الإشكال لا يخص الفلسفة وحدها وإنما هو إشكال نابع من صميم الأدب.

الهوامش

1 Aron (Raymond) Leçons sur l'histoire. Le livre de poche,biblio ,essais. Editions Fallois. 1989.p.p32-33: <<les philosophes sont les gens qui se comprennent le plus difficilement entre eux parce que chacun a son langage . Il m'arrive de lire des dizaines de pages de jeunes philosophes pleins de talent, comme Derrida , sans même savoir de quoi ils parlent. >>

2-يشهد على فشل هذا التقارب كتاب الهوامل والشوامل الذي يمثل في نظرنا اصطدام منظومة الأدب البيانية العربية بنظام الحكمة البرهاني الهليني . ولم يدرس هذا التصادم إلا جزئيا ، ومن خلال نماذج محدودة كمناظرة النّحو العربي الممثل في شخص السيرافي والمنطق اليوناني في شخص متّى بن يونس القنائي.

3-أبو يعرب المرزوقي : في العلاقة بين الشعر المطلق والإعجاز القرآني ، دار الطليعة بيروت ط1،2000

4-انظر (المرزوقي ، في العلاقة بين الشعر المطلق والإعجاز القرآني ، ص5) حيث يتذرع للسطو على الكلام بحجة الضحية حين يقول في فاتحة المقدمة « لم أمارس الشعر ولاالنقد ممارسة المحترف. لذلك فلن أعجب كثيرا إذا جادل البعض في حقي في الكلام ."

5-تظهر هذه النغمة التطبيبية على نحو سافر في المقدمة برمتها خاصة في البداية . ومن الأمثلة المعبرة عنها قوله (ص5) « وإذن ، فمنطلق هذه المحاولة هو ملاحظة تقريرية تجعلني أعتبر الشّعر العربي اليوم ، خلافا لما يتصور أصحابه وخاصة المنظرون منهم ، في وضع لا يحسد عليه : إنه مثل وجودنا الحضاري كله ، عقد من الجثث التي لا يربط بينها إلا النظام الخارجي المستمد من نظام الأشكال الشعرية الغربية الحية الحية عند أصحابها والتي يحاكيها هذا الشعر دون أن يتضمن مبدأ حيويتها المبدعة لها لكون المبدأ ليس ممّا يحاكى مادام لم يفهم بعد مثلما لم يفهم مبدأ الحيوية الأهلية الذي يتصورونه أساس عملهم الإبداعي المزعوم وأداتهم للربط بين القديم والحديث . "

6 لفظ الأزمة من استعمالات المرزوقي الأثيرة تصدرت عنوان المقالة الأولى والمقالة الثانية ، إلا أن تأويلنا لها يختلف عن الدلالة التي يقصدها المؤلف .

7 تصل هذه النبرة الكارثية إلى حدّ الندبة المأتمية في مقدمة الفصل الأولّ من المقالة الثانية حيث يقول في فقرة سجعية آسرة (ص77) "**فشل عولمة العمالّ يعوضونه بعولمة أصحاب الأعمال ، فيمكنون لكلّ دجال ويرفعون كل شيال ويتوجون كلّ محتال إبقاء للحال كما هي الحال ، بوهم الإذهال وفهم الإجمال تسويدا للإغفال واستعباداً للرّجال فاستبعادا للسؤال واستئخارا للآجال فاستقداما للانحلال واستلهاما للاضمحلال**"

8-صليبا (جميل): المعجم الفلسفي، بيروت -لبنان ، الشركة العالمية للكتاب ، 1994، ج2،ص.ص 388-389

9-ليس التصوّف الذي نعنيه هو ذاك التصوف السّرّي أو mystérieuxأوالدّيني religieux وإنّما هو ذاك الذي يعبر عنه بطريقة معقولة ، لها معنى ، ولكنه في المقابل لا يمكنه أنّ يتجلى في الوجود .راجع في هذا السياق كتيّب:

Mélika Ouelbani : Wittgnstein et Kant : Le dicible et le Connaissable .Tunis cérés éditions ,1996,p42

10رغم وعينا بأنّ مفهوم العوالم الممكنة منحدر من المنطق الجهوي، فإن استعمالنا له سميوطيقي بالمعنى الذي حدّده ECOفي كتابه Lector in fabula, Le livre de poche في الفصل الثامن بعنوان : Structures de mondes

11دوبريه(ريجيس):محاضرات في علم الإعلام العامّ،ص60

12السّيوطي (جلال الدين) : الإتقان في علوم القرآن، ج1 ،ص47وهذا التصور موجود في القرآن في بعض آيات ( الكهف ، 109 ) " قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّى ولو جئنا بمثله مددا ."

13دوبريه(ريجيس): محاضرات في علم الإعلام العامّ، ص60

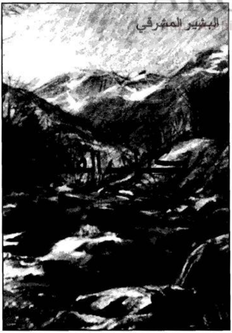
14نعتمد في محاضرة هذا الإشكال على كتيب مليكة الولباني الممتع:

Mélika Ouelbani: Wittgenstein et Kant. le dicible et connaissable : Tunis cérés éditions:1996 :p 69

15-Ludwig Wittgenstein: Tractus logico -philosophicus tel-Gallimard,1995 : p107

* تم تقديم هذه المداخلة ضمن أنشطة نادي كتب وقضايا في الثقافة ابن خلدون وقد أدار اللّقاء الأستاذ رضا الملولي في شهر نوفمبر 2000.



# ملكةُ السمَاء تنشدُ سِحرَ جمالِها للأديبِ



محمود شاهين *

مهداة إلى شاعر العشق الممنوع نزار قباني

**************

وأنا يا حبيبي

ستجدني واحدة في سبع ..

وسأتحول من السبع إلى سبع أخريات .....

ومن السبع الأخريات إلى سبع أخريات

سأكون ياحبيبي، كلّ الحوريات وكلّ الإنسيات،

كلّ السُّمر، كلّ البيض وكلّ القمحيات

سأكون الظبية، والمهرة والملكة،

والملائكيّة، وسأكون ربة الربات....

سأكون ياحبيبي كلّ العاشقات

******

سأكون كل من خطفت قلبك عبر السنين الموحشة

وضاعت في غيهب الزمن أو زحمة الطرقات ....

وسأكون ياحبيبي بكل الشعور الخالبات:

بشعر حريري هادل، أو خلاسيّ عاصف ....

أسود بدويّ، أو أشقر روسي

بني هندي أو أسمر غجري،

*قاصّ وفنان فلسطينيّ

ينهمر كشلال أو يتلوى كأفعوان .
أو يكتسح السهوب كما الظلال الغَارِباتْ ..

******

يتدلى في خُصل ، أو ينضفر بحنان ، أو
يمور كما السنابل في الحقول المخصبات ....
يتثنّى بدلال، أو يلوح مع الريح ، أو يفيض على الشطآن
كموج البحار الغاضبات
يهفهف مع النسيم ،
أو يفر كأسراب اليمام الجافلات...
يحلق في الغمام ، أو ينداح مع العواصف
العاتيات.....



******

وساكون يا حبيبي بكل العيون
العيون السود الهائمات
والعيون الخضر الساحرات
والعيون الزرق الغاويات
والعيون الصفر العاسلات
والعون المكحلة بالألوان المائجات
ساكون بعيون عيون كل الغجريات ....

*****

وساكون ياحبيبي بكل الأعناق :

الظّبيانية والزرافية والبضّة
والماسية وكل الأعناق القاتلات ....
وساكون ياحبيبي بنهدين جدائين
أو إجاصيين ، برتقاليين أو تفاحيين
وديعين كحمامتين أو حائرين كبومين
صغيرين كظلف الرشا أو كبيرين كبازين ....
وساكون ياحبيبي .
بنهود كاعبات حانيات كقطوف
دانيات ،
وحنونات كأمهات هاويات ....
ناهدات دافقات جامحات عابثات .......
******
ساكون يا حبيبي ببطن للتماري
وسرّة تتضوع بالمسك
وأفخاذ أملس من الديباج.....
وفم أصغر من حبة الكرز
وشفاه كالورود اليانعات
******
وبرُعم بحجم حبة الفستق
تعبق بالند ....
وحُق متناه في الصغر

تفوح بالعنبر

وخدود بالقبل مغرمات .....

******

ووجنات ناعسة وخصور ناحلة

ورموش سابلات....

وأرداف كالزبد ورُكب ساحرة

وأياد كما الأحلام، وسيقان

ماحقات....

وأقدام ملائكية وأصابع كما

الألحان وقدود مائسات

وعظام لشفافية جلدي

بائنات .....

******



ساكون يا حبيبي كل جميلة مرت في التاريخ

أو خطرت في الخيال، أو رسمتها الريش

أو صقلتها الأزاميل، أو خطتها الأقلام على

الصفحات ....

إن كانت إنسية أو كانت جنية

ملائكية أو ربة، عذراء أو ثيّبا،

من تكوين الخالق أو من بدع المخلوقات....

******

ساكون ياحبيبي ساكون

عشتار ، وإيزيس ، دليلة وإستير ،
ليلى وسارانيو .... أثينا وممتاز محل ...
وحواء وسمورامات
سونيا وجرتشن ، أمل والموناليزا
ناتاشا ودلفينا ، المجدلية وراحاب ...
وأوروبا وأفروديات !
هيلانة وبلقيس ، كليوباترا وزنوبيا
إلزا وبياترتشي، وانانا وعنات .....

******

ساكون ياحبيبي
كل جميلة كانت
وكل جميلة لم تكن
وكل جميلة يمكن أن تكون
ساكون يا حبيبي الجنون ....
ساكون الأجمل والأكمل منذ خلق
الكائنـــــات .....

******

لنتوحد ياحبيبي أنا وأنت
وأنت وأنا
ونحن ونحن

مع الوجود
ونندغم في خضم الرعش الكوني
ونشوة الروح
والمكان الأبديّ
والأزمنة الخالـــدات
******



(+) ترد هذه القصيدة ضمن ملحمة روائية تحمل عنوان «غوايات شيطانية » و«سهرة مع إبليس »صدرت ترجمتها باللغة الألمانية أواخر عام 1999 قبل أن تصدر طبعتها العربية .

# قصائد قصيرة معرّبة لبريفار

تعريب: أمال سفطة *

## أليكـــانت *

برتقـــالة علـــى الطـــاولة
فستـــانك طريـــح البســـاط
وأنـت فـــي فراشـــي بيـــن ذراعـــيَّ
هبـــة لطيفـــة من الحـــاضر
رطـــوبة الليـــل
ودفء حيـــاتي.

ALICANTE



Une orange sur la table
Ta robe sur le tapis
Et toi dans mon lit
Doux présent du présent
Fraicheur de la nuit
Chaleur de ma vie

Jaques Prévert.
1998/07/26

(*) نبيذ من إنتاج مقاطعة اليكانت بفرنسا، ويعني به الخمر الحلو

*مترجمة تونسية

## الجواد الأحمر *

في رقصات الكذب الدّائرية

جواد إبتسامتك الأحمر

يدور

وأنا هنا واقف مقيم

بيدي سوط الواقع الحزين

وليس لي ماأقول

إبتسامتك حقيقية

كما حقيقتي الجوهرية



## LE CHEVAL ROUGE

Dans les manèges du mensonge
Le cheval rouge de ton sourire
Tourne
Et je suis là debout planté
Avec le triste fouet de la réalité
Et je n'ai rien à dire
Ton sourire est aussi vrai
Que mes quatre vérités.

Jaques Prévert.
1998/07/26

# الخـريـــــف*

جــواد ينهـــار وســـط ممـــرّ

الأوراق تســـاّقط عليـــه

حبـــّها يرتجـــف

وكـــذا الشـــمس .



## L'AUTOMNE

Un cheval s'écroule au milieu d'une allée

Les feuilles tombent sur lui

Notre amour frissonne

Et le soleil aussi

Jaques Prévert
1998/07/26

# حــــوار



هيثم الزبيدي *

ما خَطبُها؟

حاولتُ ان اتقيأ المنسيَّ منها

في ركام حماقتي

فتمزقت أحشاء روحي ...

ما خطبها ؟

فتحتْ نوافذها على عمري الفقير

فرأت ثياب طفولتي المثقوبة الأردان

خجلى

ورأت بها

أمي تقود نذورها للخضر

شمعاً

أو بخوراً

وانتظاراً ظامئاً ..

وفتحتُ نافذتي على أجوائها

فرأيت قافلة من الحلوى

تسير الى الأمام

أبصرتُ شمعا ليس يشبهُ شمع أمي



*شاعر من العراق

وشممتُ خبزاً ليس يشبه خبز أمي
حدثتها ...
حدثتها والتينُ والزيتونُ يصغي
حدثتها أنا عن قدور الماء
تغلي فارغهْ
حتى ينام – برغم أنف الجوع – آلافُ الصغار
حدثتها ..
فبكى الربيع على دمي
والجسرُ والطرقاتُ والغدرانُ والبجعُ المسافرُ والعيونُ
السودُ والصبيانُ والشوكُ المقيمُ بجانبي ...
وبكت فأنّ السيسبانُ
هدأتهُ فبكى النخيلُ وراح ينشج سعفهُ
أحصيتُ ساعات النواح على دمي لا زلتُ أجهلُ لونها
ثم الخطى من بيتنا حتى القبورِ ...
أحصيتُ أشجار القرنفلِ
والهلاهلِ
والصبايا الحالمات بـ "ريحة" (1) وبعود "ديرم"(2)
أحصيت آلاف الليالي الفارغات المضربات عن العشاء
احصيت نوبات الحراسة
والسواترِ
والفخاتي التائهاتِ

وقنابل التنويرِ

والغزل الحزين ...

هي حدثتني

حدثتني.. عن عصافير تزقزق كل يومٍ في نداها

حدثتني عن فراشات هواها

عن عبيرالآس ... عن فستانها ..

راحت أصابعها تحاصرني وتخنق لوعتي

جلست على نهري وراحت تحتسي " اسكنجبيلاً "(3)

قد ساءها الملحُ الذي بدمي يفور

تفيأتْ أشجار عمري

صافحتْ كل الوعول الهائمات على عيوني

وأمدُ كفي كي اصافح ذلك البردي

وأشعرُ ان كفي في الطمي تذوي ...

أحسستُ أن يدي تَموتُ

هي قاطعتني عندما اوشكت أن انهي عنائي

سألتني ذات يومٍ :

-مثل ماذا انت ؟ قل لي؟

قلت : كالأنهار كالقصب الذبيح

أو نخلة من دون سعف .. دون طلعٍ

تلك روحي ...

ومضتْ تجرجرُ خلفها بستانَ عمري

أنا لمْ اصدقْ أنَّ أشجاري على عجلٍ تسيرْ
لكنني أبصرتُها تمشي
وتعثر في المسيرْ
ورأيتُ رأسي ... كان يسبقني إليها
ويوشكُ أن يطيرْ



(1) ريحه: عطر ( عامية عراقية).

(2) ديرم : لحاء اشجار الجوز، تستخدمه القرويات لا ضفاء صبغة قهوانية على شفاههن عند امتصاصه ( عامية عراقية).

(3) نوع من المشروبات الشعبية العراقية حلوة المذاق .

# كسوف 1999

أحمد المختار الهادي *

تكْسفُ الشمسُ إذا حَال القمرُ بَينهَا والأرضَ فالظّلُ ستَرْ
كُلهَا فهو كُسوف كَامِلٌ بعضهَا فهي هلالٌ قدْ صغرْ
شمْسنُا أمْ ذَا رغيفٌ قُرصهُ كُلمَا نَأكُل منهُ ينْشطِرْ
نَفَذتْ طَاقتهَا من يومِ أنْ بَشرٌ يَبْغي بهَا محقَ البَشرْ
غَابَتْ الشمْسُ على عُبّادهَا بعدهَا قدْ عَبدُوا قُرصَ القمرْ
تلكَ غَابتْ إثْرهَا يأفَلُ ذَا إنْ حسّ الشكّ أدْهَى وأمرْ
أيُّها الإنسانُ ماذا تبتغي ربّ خَيرٍ صَارَ مَربُوطاً بشَرْ
عقْلكَ الآنَ إذا شغّلتَهُ عشْتَ مهْموماً هُنا طول العمُرْ
فتَصورْ كيْفَ أقْبلْتَ إلى هذهِ الدنيا وأيانَ المقَرْ
جئتَ هذا الكونَ عبداً طَائعاً وستَمضي هكذا لمْ تستَشرْ
حبّةً تدفنُ في قعْرِ الثرى ثُمّ تنْمو مثلهَا كي تزدهِرْ
شمْسُنَا قدْ هرمتْ لا تعْجبُوا ربمَا أنهكهَا طُولُ السفَرْ
ربمَا أضحتْ عجُوزاً خرفتْ وتصَابتْ في دلالٍ و خفرْ
فَغدتْ مكْسُوفةَ الخاطرِ من تُرهَات النَاسِ كادتْ تنفجر
فلنَا كُمْ زعمُوا نَاظرها ربمَا تفْقدهُ حسّ البصَرْ
حذرٌ كانَ رهيباً ربمَا ربمَا يُنجيكَ إغفال الحذرْ
كُل علمٍ صَارَ نسبياً إذنْ كمْ من العلمِ بنا حاقَ الضررْ
غير أنّ الزمنَ المعْكُوس في هذهِ الدنيَا بعكْسٍ مُستمرْ
صَغرَ العَالمُ أضحَى قريةً ضَاقتْ الدنيَا فأيَانَ المفَرْ

*شاعر تونسي ...

# قصائد قصيرة

فرج العربي *

## إلى أمير الصّعاليك عروة

قسم جسده في جسوم كثيرة
ومضى
شهوة في القتل
سهم جامح في قلب القبيلة
السفر منفاه
والأهل ابدا لم يكونوا مقبرة السر
آه يا عروه
عدت غانما
لكنني فجعت في أصحابي
****

## إلى تأبط شرا تأبط كارثة

تأبط رذيلة وأتى
تركب قوسا
ودار يصرخ في نادي أهله
أنتم فجيعتي
****

## إلى بوذا

يا لبوذا المسكين
حلق شعره حتى الجلد
وصنع من أوراق الشجرة قصيده
أشرع أبوابه وارتدى الصحراء

* شاعر ليبي

يالجوتاما المسكين
حبة أرز واحدة في اليوم
كل ذلك
من أجل الخلاص .
****

## نافذه

من النافذة
يحدق في فضاء مليءٌ به
ترتجف النافذة
لهول مارأى
****

## حقيبة السفر

الحقيبة في آخر الممر وحيده
تنتظر المسافة
ربما كنت أنا
الذي قرر
أن يرتشف الوقت دفعة واحده
****



## عجوز آسيانه

في الصباح
ينسل الليل مذعورا
من مخدع امرأة
ويقفز من النافذة
وفي الصباح
أمام الدار
نبتة تتسلق عجوز آسيانه
تنظر في الممر البعيد

****

## فخذ ريان

نسيت رأسي
على فخذك البض الريان
تركتني أشرب منك وما إرتويت
أرعفت فيك
ملأت إناءك حتى سال
وأكثر من الحبر في قلمي

## ليل يشخر بجواري

لا أحد
زائري الوحيد بالأمس
أعاث في كل شئ
مزق الستائر والأبواب
وأحدث شرخا في ذاكراتي
مزيد من الخراب
كي أستيقظ من غفلتي
وأنشر رغبتي عاليا
ربما لعاهرة بلاستيكية
توقظ الشهوة بالأزرار
ربما لسرقة الأيام
واحترام الاشارات عند مفترق الطرق
ربما الأولاد يتزاحمون
أمام بائع النار
وعلب النعاس المتثائبة
ربما لفرصة أخيرة
تسبق الميت الى المقبرة
ربما لمقعد مهجور
يجلس وحيدا في الحديقة
ربما لفتاة شبقه
ترفع تنورتها للمارة
ربما لي

عندما التفت بتثاقل إلى الليل
وهو يشخر بجواري
****

## دار كما الوديان

أشرع عينيّ
على مساء يبصر أمسه بصعوبة
الدار التي أرتأيتها
هربت من ذاكرتها
وراحت تسرح كما الوديان
****

## غبار الجريمة

المساء يرتدي فستانا أنيقا
ويبدو كمخنث
في نظر الآخرين
لكنني أراه أنثى
تشرع جسدها أمام الجميع



## البياض

بصدر رحب يستقبل كل الألوان
ويعكسها في اتجاهنا
فضاء
نشكل فيه خربشة نسميها أحلامنا
البياض ملاذ نا حين نتعب
وسادتنا حين يغالبنا النعاس
البياض نحن
حين نكون عاريين تماما / ونشرب الهدوء برفق
****

# الخـــراب اللـــذيـــذ

حاتم النقاطي *

(1)                    (

## خراب المدن

ذاك كان الطريق

نعتصر الحرائق الأولى

نشمّ الجثث

كل الجنود الذين عشّشوا في التخوم

جذفتهم أوبئة عام الغول

لم يبق في ذاكرة الأطفال إلا حكايات الفجائع

التي تجهض الحوامل ...

أحاديث العجائز عن جنود من صفيح

يأكلون حتى الكلس

ولهاث قادم من أكواخ خشب الزيتون

أصوات ... أنين ... وصمت القبور ...

*شاعر تونسي ...

**2) إنتظار**

لا زلنا نهوى الضحك حتى الفجر

والغمز حتى النوم

الجري الجري ركضا الى الأفق الأزرق المرصّع ببريق الماس

نملأ الرئتين من هواء البحار

تحط السفن عند الميناء

تعلو الأصوات تهتز أحزمتنا مجانين ننتشي من المجهول

ننتظر الإقلاع الى "مدن علاء الدين مدن الضوء والشعر

والحبّ والتّيه

أيها الرحالة توقف عند التعب

الأيام التي شرّدت أحلامنا

أنّى لها أن تنقشع من صيف السماء

متى نضع أثقال الروح

وتستريح القلاع من هجمات الريح وصفع المياه

## (3) الأحلام الأولى

المدرسة الرائعة تغادرُهَا الى لهاث عجب

سترى النواقيس تدق رماد السّماء

ستسمعَ العيون الدامعات تسقي ساحاتها

ستراقص أخيلة ما تستطيع إمساكها

تشق الزقاق الى العبث

تعانق البسمات والأوحال تلعقها بلسان النار



أيها الشقي المغمض الجفنين الممزق المنديل

لا وقت للشخير فالجرس يدق

العالم سيظل مفتوحا للحلم

والموت لن يصافحنا

مازلنا صغاراً نشدو بكل اللغات

# لإفريقيتي وعروبتي

بهاء ولد بديوه *

لَقد بلغ المَدَى الأَسَفُ الذي عتقته في غورك اللّهبي
أيتهاالفجاجُ السابحاتُ مَعَ الهجير الرحْب !.
في الرَّملَ المُشعْشعَ بالسَّراب وبالحَنين الرّحْب ...
قَد بلغَ المَدَى الأسفُ الذي عتقت...
قد بلغ المدى !
وانسَلَ من ليْل الخَوابي نبْع هَذا الحلُم ..
من ليَلِ الخوابي المُظلَمَات .. من الدُموعِ من الجوَى
من زفْرة الرُوح التي لفظَت ....
على الأرض المعذبَة الحزينة روحهَا ...
ينسَل نبع الحلم من ألم التراب ...
سلافةً قد صفقتها الريحُ في لَهَب القُرون ...
على امتدادك يا ربُى أرض تُخضبُّها جراحات القُرُون!
فمُدَّ كأسَك أيُّهَا الألمُ الرَّفيقُ !

****

وصُب في غَور الضنَى من نَبع هذا الحلمِ !
وانْس للحظة شجَن الطَريق !
وكيف تنسَى ... كيف تَنسَى ؟!
إن أصْدَاءَ الذين سقوا غليلَ الرّملِ ...

---

*شاعر موريطاني ...

مازالت تثوبُ إليك ...
مازالت تثُوبُ من الثرَى ..
من رملِهَا الأبدي مازالتْ تثُوبُ إليك ...
من ليْل الشفاه المُطبقَات على دفين التوق تحتَ الرمل
مازالتْ تثوبُ إليْك ...
هل تَنسَى الوجُوه الذابلاَت من الأسَى؟..
تنحلُّ في سُدم الغياهب في مياه الليْل.
هل تنسَى الجراح كأنَّها لمعُ السنَا الشفقيّ؟
هلَ تنسَى اللّيالي سُهْدُهَا المُخضَلَ بالعبرَات ؟
هَلْ تنسَى ؟!...
كأنّ أناملاً مدت إليك من الثرى..
بوشَائج الآلَمِ التي اغتزلت...
علَى الأحقَاب ملء مغازل الذكرَى.
كأنَّ وميضْ لألاءَ الخناجر..
يسْلكُ الأزمَانَ من أقطارهَا ..
ليمُدَ أحشائي بفيض نشيجه المجْرُوح ..
بالفيض الذى سكبتُهُ من آلامها وجراحهَا .
إنى أمدُّ إليك أيّتها الجراحُ ..
جراحَ قلب نازف اللّحظات ..
من أسفى ومن حلُمى ..
أمدُّ إليْك هذى الكأسُ ..
ممَا قطرتُهُ من الحنينْ ..

ومن جوى الألم الحسير..
دنان هذا العمر
أسكبها لساهرة الجراح ..
حنينها الظمآن للحلم المحلاّ ..
أيها الحلم الذي ترنو إليك من النوافذ !
أيها الحلم الذي ترنو إليك عيونها الولهى !
لوهجك ...إنني من أجل وهجك ..
للذين هم ارتوت بنجيعهم سهبانك العطشى ..
للألاء الحنين المستهل مع الدموع ..
لومضة الأمل الذي مازال يلمع في دجى الألم الفلسطيني
للجسد الممزق والدم المنثور من جسد الجزائر
على شعابك بعد أن جاب الزمان به متاهات الأسى ..
حلت ضفائرها السحاب !..
عليك أيتها الشعاب !
فلو فتحت رحيب صدرك لي !..
وظللت السماء عليّ من سحب الحنان !
وهل أمد على ثراك ..
عروق أحلامي التي عن أفقها انحسر الغمام؟
وهل تعرّش فيك أغصان النّشيد ؟
ويستريح على مناكبك الهيام؟

# المعلقات التسع المنحـولات!

طرّاد الكبيسي*

-1-

أقول : لخولة أطلال ....

لكن لا أحد يصدّقني .

أقول : إرفعاني -يابارك الله فيكما -فقد تبين ما بيا !

لكن لا أحد يصدّقني.

أقول : ليس هذا وطني :

وطني خضرة ، وماءٌ ، ووجهٌ حسنٌ .

وهذه دمنٌ خرساءُ ،

وتربة جرداءُ ،

وأموات دون كفن !

– 2–

قلتُ : أريد وطنًا بحجم تُفَّاحة ،أو بحجم الكَفّ :

وسيمًا ،كليمًا ، زكّيًا!

قالوا : ماذا تفعل بوطنٍ بحجم الكفّ ؟

قلت : أحمله على ظَهر طائرٍ الى أرض لا مَوتَ و لا قَتْلَ

فيها ، ولا دماء /أدفنه في الرّمل وأغطيّه

بالأعشاب /وأسنده بأحجارٍ من المرمر

والياقوت /وأنام فيه ،

وأموت!

– 3–

خُيّل لي مرّة أن أحمل جسدي وأطوف به في أسواق البلدة / لكن الناس ظنوا أني أنادي عليه في السوق . فأصابهم الذعر ، وأغلقوا أبواب دكاكينهم ولجؤوا الى بيوتهم يحتمون بأحضان نسائهم . قلت : ملعون أبوك بلد ! وقفلت راجعا الى النهر الذي جنب بيتي ووضعت جسدي في قفة ودفعتُ بها الى التيار . وقلت : الآن أتخلص من متاعبي وأتبرأ من أخطائي!

إذهب أنت وربّك فقاتلا!

– 4–

لكن وبعد ساعة من فعلتي تلك ، قرع جرس الباب . إفتح . فتحتُ : فإذا بهما : جسدي وأخطائي يستبقان الدخول . قلت : مهلا ، من تكونان ؟

قالا جسدك وأخطاؤك . وهل تظن أنك قادر على النجاة من قدرك؟ قلت : والقفة ؟ قالا : خرمَها وأغرقها رجل صالح بعد أن رأى حاكم البلدة يأخذ كل سفينة غصبًا!

– 5 –

مرة رأيتُهُ (أقصد جسدي) يقف في منبسط من الأرض كثيرالشجر. قلت :إمسح عن وجهك الظلال . فأنا لم أعد أحتمل الخواتم المفجعة ./ الخواتم المفجعة كانت مثل قطيع هائم من الماشية وبلا كلب يحرسها .

ثم آوت (أقصد : الخواتم المفجعة ) الى جبل لعله يعصمها من العاصفة . لكن العاصفة كانت على عجل فجرفت كل السلالات ، وأتت بسلالة واحدة: سلالة ما بعد العاصفة !

* كاتب عراقي

-6-

كلّ يوم أعبر دجلة . فأرى النوارس تعتلي رابيةً هنا ، وتلة هناك ./ وأرى من يعبر النهر من جانب لجانب مشيا ودون أن تبتل ركبتاه ! قلت : أين ماؤك وطوفانك ؟ أين بساتينك ومقاهيك ومغنّوك والساهرون ليالي الصيف وفي عز الشتاء ؟

قال : أكتم سرّي، نحن أسرى يا ولدي ، لا ماء بعد اليوم ولا غناء!

-7-

مرّةً إنجمع العالم في يدي بحجم جوزة الهند ، مدوّرًا طريا صغيرا . فقلت : ماذا تراني فاعل بك ؟ قال : إن أسقطتني على الأرض ، تلاشيت .وإن قذفت بي الى العدم ، كبُرْتُ. فأنا كل ما خلق الله !

( هامش : وعلى ذكر الجوز . قال أبو معشر الفلكي في برج الجوزاء: إنه برج هوائي ، ذوجسد دمويّ . المولودة به من النساء تكون إمرأة بيضاء اللون بصفرة أو حمرة مليحة العينين ، طويلة العنق ، رابية الفرج كبيرة القاعدة ، لبيبة لا تمل الجماع ...)

-8-

مرة أهداني مصباحا قال : إنها مشكاة تنفعك في كشف ظلمة الأنوار . قلت: وماذا عساني أفعل بظلمة لا تنير، وبضوء لا يعتم ؟

قلت : وما إسم هذه الأبراج والفنارات ؟ قال بشيء يخصك! سمّها ما شئت ، ثم ألقِ بالأسماء في الماء يشتعل ، ألقِ بها في العتمة تخرج بيضاء ، ضعها في الرمل تنبتُ عشبا وأشجار جوز الهند !

-9-

سأقول : يلزمني الصمت إزاء مالا يمكن التلفظ به !

وأقول ك يلزمني أن أتوقف عن محاورة السفسطائيين في بيت الموتى ، وأن أترك ذاك لدستيوفسكي !

يلزمني أن أوقف هدير اللغة الهيروغليفيّة في داخلي ، وأن أقول للأشياء : كوني ! فتكون. وأمنحها أسماءها ، فتبوح بأسرارها وتقول :

*ما نفع الذاكرة غير أن تذكرنا بفردوس الماضيين وجحيم القادمين !

*ما أعجب الدهر ، حينا يورق ناسا مثل شوك لا ورق فيه ، وحينا يورقُهُم ورقا لا شوك فيه (أبي ذر الغفاري )

*آه . لو لن نتحدث عن أخطائنا ، وندعها تَحدُثُ فقط !

**بغداد أواخر 1999**

# المنصف الوهايبي : سيرة من ؟ سيرة شاعر أم سيرة جيل أم سيرة مجتمع !؟

عبد الجليل بوقرّة *

تمتدّ علاقتي بالمنصف الوهايبي على ثلاثين سنة، خبرته في مواقع متعدّدة وفي مناسبات مختلفة ومتنوّعة فلم أجده ولم يجد نفسه سوى شاعرا : تقترب منه أو تبتعد عنه، تختلف معه أو تتّفق، تخاصمه أو تصالحه، تحدّثه أو تستمع إليه... لا يزيده كل ذلك سوى شعرا وشاعريّة ولا يزيدك سوى غواية.

عرفته في بداية السّبعينات، أيّام الغضب والحلم «بانعتاق البراكين»، يحفظ أشعار سعدي يوسف وأدونيس وأمل دنقل عن ظهر قلب. نتحلّق حوله، أساتذة وطلبة، ليقرأ لنا البعض من قصائد أولئك الشعراء الذين أحببناهم عن طريق صوته الجهوري والصّافي النّبرات ثم يقرأ لنا آخر ما كتب من قصائد (خارجة) محلّقة بعيدا عن سرب في غير العمودي والحرّ وإن كانت تماهيها في المعنى، أذكر خاصّة قصيدة «Z» المستوحاة من رائعة السّينمائي c.gavras بنفس العنوان :

سلطانكم كالثور الإسباني
يغشى عينيه اللّون الأحمر

كما أذكر قصيدة ماسح الأحذية وقصيدته مع عمّارُ منصور... وغيرها من القصائد التي تعكس واقع جيل حائر ورافض وحالم ومتعجّل... إنّه جيل السبعينات القادم من مختلف الآفاق الى الجامعة التّونسية النّاشئة شيّد بخياله المجنّح عالما من المبادئ والمثل : العدالة، الحرّية، المساواة، واعتقد، صادقا، تثبيتها الفوري في الواقع، فكان المركّب الجامعي بتونس فضاء أريحيّا لذلك الشباب الحالم يردّد فيه شعاراته ويقرأ أشعاره بالعاميّة والفصحى وبرزت بعض الأصوات تصوغ ايديولوجيا الشبيبة في قصائد متنوّعة الأشكال :

عمّار منصور، حبيب الزّناد، مختار اللّغماني، النّوري بوزيد، وكان منصف الوهايبي منسجما ومختلفا مع شعراء تلك الفترة :

- منسجما خاصّة في مستوى المعجم الدّلالي فالقيم والرّموز واحدة أيّ انّ الحقل الدّلالي كان واحدا لأغلب شعراء السبعينات، فعندما نراجع الملحق الثقافي لجريدة العمل أو مجلّة الفكر فإنّنا نجد تقريبا نفس الإستعارات (اللّون الأحمر والأرض والعاصفة...) وهي استعارات طالت أيضا المسرح (المسرح الجامعي مع السّيد العلاني وأعمال فرقة الكاف مع السّويسي) والسّينما (خاصة أعمال نادي السّينمائيين الهواة بالقيروان) فانحياز أغلب الشبيبة المثقفة في السبعينات كان لقضايا العدل والحرّية والمساواة والرّموز تجسّدها شخوص من جنس الحلاّج وأبي ذر الغفاري وشي غيفارا... ولم يشذ منصف الوهايبي عن القاعدة اذ انخرط ضمن خانة المعجم الدّلالي لعائلة اليسار الكبرى واستمدّ منه رموزه وشخوصه ودلالاته في قصائد نشر أغلبها بمجلّة «الفكر» ونتمنّى أن يسعى إلى جمعها واعادة نشرها حتّى يقترب الجيل الجديد أكثر من عوالم جيل السّبعينات : جيل الغضب والحلم «بانعتاق البراكين» لكن منصف لم يكن منسجما تماما مع ماسميّ آنذاك بشعراء الطليعة أو شعراء غير العمودي والحرّ خاصّة في مستوى الصّورة الشعرية والقاموس اللّغوي لذلك قلنا أن منصف كان

* أستاذ تاريخ بالجامعة التّونسية

مختلفا. فعندما انتهت عشريّة السبعينات وتفرق الشمل واختلفت السّبل (وخفتت أصوات وتاهت اخرى) واختفى البعض وتاه آخرون كان رصيد منصف اختلافه الخلاّق ممّا مكّنه من الإستمرار و انضاج التجربة فكان ديوان «ألواح» في بداية الثمانينات حاملا لشعرية تتطوي على جذوة تشكيل صوفي، مصفى من رطانة النمط السّائد الفارق في اعادة خروقات الأئمة الأولين وانتحال تأويلات فنية لصورها على حدّ قول النّاقد السّوري خالد زغريت (الزّمان 1999/7/26). لقد حقق منصف الوهايبي في ديوان ألواح التّجاوز السيميوليوجي كنتيجة لشبه قطيعة ابستيمولوجية مع تجربته السّابقة. أصبح الإهتمام بالجوهر العميق لحياة الإنسان وبدأ التحليق في عالم الماورائيات الرّحب والذي انشد إليه الإنسان منذ أن كان ولا يزال :

**ها أنذا أضع القوس بيني وبينكمُو شارة**

**وأقيم على الأرض مملكتي فادخلوا :**

**آمن من بنى بيته في انعتاق براكينها**

**آمن من أنام سفائنه في ازرقاق عواصفها**

**سمعتك واللّيل أزرق تهتف باسمي فاسرجت حلمي**

**وجئت إليك...**

يتحرّر منصف الوهايبي من المحسوس الآني وينفلت ببراعة من طوق اليومي إلى عالم الشعر عالم الحلم الأبدي :

**«طريقي إلى شمس المدائن وعرة**

**ولكن خيطا من ضياها يقودني»**

إنّه التّجديد حسب تعريف غرامشي عندما كتب في دفاتر السّجن :«إنّ الصوفية هي حركة التجديد في الإسلام». لم يتفاعل النّقاد في البداية مع تجربة منصف الجديدة وربط jean Fontaine ما يكتبه منصف بما سمّاه السّياسيون آنذاك بالصّحوة الدّينية في حين كان الوهايبي يبحث عن شيء آخر عن حقيقة خارجة عن المألوف عن كينونة مُسربلة بعتمة أزلية لذلك خيّر الإنزواء :

**«أرتدي حلمي وأقفو أثري**

**من وجعي أستلّ روح الفرحة المرتبكة**

**فإذا الزّهرة تغدو طاقة**

**وإذا الرّيشة تعدو قفّرة**

وإذا بي أصحو أتدلّى في حبال الكلمات الشّجرة»

النّقد بقي شبه معطّل يجترّ قوالب قديمة ومناهج بالية منغلقا في شبه غيبوبة فيواصل الشّاعر تجربته، صحبة محمّد الغزّي مشكّلين ما عرف آنذاك باسم «مدرسة القيروان»، معتمدين على زادهما ممّا اطّلعا عليه من موروث الشعري العربي والشّعر العالمي أيضا متنقّلين بين المهرجانات مطّلعين على تجارب الآخرين فتطوّرت التجربة «ومن البحر تأتي الجبال» :

قل لنا

من أي باب جئتها

كيف تناهيت إلى أسوارها

كيف قلت اللّون... صرت اللّون

**حتى استسلم الضوء**

**واغفى في يديك الجمرتين**

بعد تجربة القصيدة الصّوفية التي قال عنها النّاقد خالد زغريت :

«إنّ قصيدة منصف الوهايبي تسبر الصّوفية لتتكشف بها عن جمالية نفوذها إلى ذات الإنسان وعوالمه السرية لتكثفها وتختزل بهاءها في لغة شعرية خصيبة وسعيدة بامتطائها جياد الدلالة الجموحة التي لا تكبو إلا لتنهل من نبع النور السحري الذي ينبض به الكون وتلك هي أبرز سمات القصيدة المعاصرة التي تؤكد ابداعيتها بلا تمويه أو اتكاءات..» تبدأ تجربة جديدة في أواخر الثمانينات وبداية التسعينات في ديوان «ومن البحر تأتي الجبال» قال عنها الشاعر اللبناني شوقي بزيع :

«تجربة لا تكف عن اعادة اكتشاف نفسها عبر الكتابة وحدها بعيدا عما يلحق بالشعر من شوائب الخطابية والادعاء والنبرة العالية، لكنها بالمقابل لا تنحو منحى فانتازيا أو عدميا بل تحاول، تحفر في ترابها الخاص وأن تقيم شرعيتها فوق أرض الواقع المحلّي دون أن تتكفىء أو تتقوع على نفسها».

في هذه التجربة يستثمر الوهايبي ببراعة فائقة قاموسه اللّغوي وبدا في صورة سليل ملحمة شعرية خالدة، اللّغة فيها في خدمة المعنى والمعنى في خدمة اللّغة .

ينقسم ديوان «ومن البحر...» إلى ثلاثة محاور رئيسية :

في المحور الأوّل يؤكّد تجاوزه لتجربة القصيدة الصّوفية إذ لم يعد في حاجة إلى أقنعة مختلفة لوجوه وشخصيّات تاريخية ولم يحاول تأسيس حقيقة أخرى غير موجودة في الواقع بل اتّجه إلى بدائل موجودة في الحياة نفسها.

سقطت بيروت في صائفة 1982 وسقطت معها كلّ الأقنعة وتجرّع جيل السبعينات مرارة الخيبة. تشتّت الثورة الفلسطينية وتشتّتت معها الأفكار وتبلبلت : المعجم الدّلالي تغيّر رأسا على عقب والاستعارة لم تعد استعارة فالقيروان في قصيدة «عند أبواب القيروان» للوهايبي هي القيروان وليست القيروان فهي في نفس الوقت تلك المدينة العتيقة النّائمة خلف أسوارها ذات الأبواب العديدة وهي أيضا مدينة أخرى انطلقت من فكرة في رأس الفنّان «بول كلي» لتضاء بعد ذلك بألوان لاحصر لها.

مدينة القيروان في هذا القصيد وجود ملموس وملتبس في آن واحد إنّها محطّة على طريق البحث عن الخلاص بين الغرب والشرق.

في المحور الأوّل تتتابع النّصوص في نسق شعري واحد ينوع على موضوع واحد هو الحقيقة بين الظّاهر والباطن أو بين العرضيّ الزّائل والجوهري الثابت.

في المحور الثاني كان «حديث الحيوان» تتداخل الحقيقة مع الرّمز مرّة أخرى عند رسم ملامح النّفس البشرية من خلال الحيوان والقصيدة. في هذا المحور يُحاول ردّ الإنسان إلى طموحه الأصلي عبر العلائق المشتركة القائمة بين عالم الإنسان وعالم الحيوان المختلفين ظاهرا والمتماثلين في الجوهر.

أمّا في «حديث الموت» يصبح الموت كأنّه ظلّ الإنسان يلازمه منذ صرخته الأولى إلى آخر زفرة.

من البدائل إلى الحيوان إلى الموت لا يهدأ بال الشاعر وبحثه عن الحقيقة بفتح النّوافذ هذه المرّة على كلّ الرّياح والنسمات والأضواء والظّلال .. إنّه الإنفتاح على ذلك الخضم الشاسع من ميراث الإنسانية عبر عصورها وحضاراتها ولغاتها المختلفة ممّا أعطى لديوان الوهايبي الثالث «مخطوط تمبكتو» غناه وتفرّده وانسانيته.

يقول الشاعر والنّاقد المصري فاروق شوشة عن هذا الدّيوان :

«هاجس الصحراء الإفريقية الناطقة بالعربية أو الامازيغية الذي يسكن وجدان الوهايبي أو يلتبسه يذكرنا باستعارات ذي الرّمة وصوره الشعرية غير المألوفة وغير المتكرّرة في كلّ شعرنا العربي القديم، لكن المسافة شاسعة والعلامات فارقة بين الوهايبي وذي الرّمة».

ما يشدّك في شعر الوهايبي عامّة : اللّغة والصّنعة أو الخطاب الشعري :

ينسج لغته ببراعة فائقة يطوّعها فتطيع كمثل خزّاف يصنع من الصلصال طيورا ثمّ يطلقها في مختلف الآفاق، يكتفها متى يشاء، يفكّك ويعيد الترتيب. إنّ لغته مرسومة بعناية، لاصلة لها بالزخرفة والتزيين المجاني بل تنساب برشاقة من مطلع القصيدة حتّى خاتمتها. منذ بدايته كشاعر كان الوهايبي مخلصا لتلك اللّغة المتفجّرة المدهشة التي لم يتوقّف تفجّرها أو ادهاشها منذ سبعة عشر قرنا، لم يرضَ لها بأي بديل ولم تستهوه موضة

العامّية كما استهوت غيره من جيل السبعينات.

الشعر عنده صناعة فهو يعرف كيف يبدأ قصائده وكيف ينهيها، يجيد الحذف والتكثيف والإختزال، يستفيد من السرد والقص والحوار ويعمد إلى مسرحة قصائده لكي لا تشتّت أجزاؤها وتتذرّى.

وصلنا «ميتافيزيقا وردة الرّمل» بعد حرب الخليج وسقوط جدار برلين وما خلّفته هذه الأحداث من خلخلة للقناعات القديمة ومراجعة لكلّ القيم والثوابت وحيرة وخيبة وذهول فتعدّدت القراءات وتنوّعت الرّؤى واختلفت المسالك ودعا البعض إلى الإنزواء والإنغلاق والتمسّك بالهويّة كما هي دون تعديل وغلق جميع الأبواب والمنافذ حتّى تمرّ عاصفة العولمة بسلام.

وقال آخرون إنّ ما مضى قد مضى وليس المرء من يقول أبي إنّما من يقول : أنا وطالبونا بفتح كلّ النّوافذ والتّثاقف وتأسيس ثقافة كونيّة جديدة ميزتها الإختلاف والائتلاف. يقول البروفسور ادوارد سعيد في مصنّفه الهام جدّا «الثقافة و الإمبرياليّة» :

«إنّني لأجد نفسي أعود مرّة بعد مرّة إلى مقطع شابح الجمال لهو غواف سان فكتور، وهو راهب ساكسوني عاش في القرن الثاني عشر...

،،،إنّ المرء الذي يجد وطنه حلوا ما يزال مبتدئا غضّا، وأمّا من يكون له كلّ ثرى مثل ثرى بلده الأصلاني فلقد اشتدّ عوده، لكن الكامل هو الذي يكون العالم كلّه بالنّسبة له مكانا أجنبيّا. إنّ الرّوح اليافع قد ركّز حبّه على بقعة واحدة من العالم، والشخص القويّ قد نشر حبه على الأمكنة كلّها، وأما الرّجل الكامل فقد أطفأ شعلة حبّه»..

ويختم ادوارد سعيد مصنّفه بالتأكيد على : «انّه لأعظم نفعا وإرواء وأكثر صعوبة أن نفكّر بمحسوسيّة وتعاطف، طباقيّا، بالآخرين من أن نفكر بـ «أنفسنا» فقط.

بيد أن ذلك يعني أيضا ألا نحاول أن نحكم الآخرين.

ألا نحاول أن نصفّقهم أو نضعهم في ترتيبات، ويعني فوق كلّ شيء، ألا نكرّر باستمرار أنّ ثقافتنا «أو بلادنا» هي الأولى (أو أنّها ليست الأولى، في هذا الخصوص)...

وبما أنّ الأفكار لها أجنحة ولا يستطيع أحد منعها من التحليق (كما يقول شاهين في خاتمة فيلم المصير) فهل نعتبر «ميتافيزيقا وردة الرّمل» صدى لهذه الأفكار الدّاعية إلى ثقافة كونيّة متنوّعة تنتفي فيها الأنا وينتقل الشاعر عبر مدارجها من حمار خيمينيث الإسباني إلى يانيس ريتسوس اليوناني ومن حضرموت إلى منازل سان جرمان

ومن مكسلياني إلى أوتيكا؟ هل هي هويّة جديدة ينسجها الشاعر تقطع مع هويته السّابقة أي هويّة تختزل ذلك الخضم الشاسع من ميراث الإنسانية عبر عصورها وحضاراتها ولغاتها المختلفة؟ هل حقّق الشاعر لقصيدته حداثتها؟

يقول Aldo Fabrizi في رائعة المخرج الإيطالي الكبير Etore Scola

" Nous nous sommes Tant aimés "

«كم حلمنا بتغيير العالم ولكن العالم غيّرنا».

لقد تغيّرنا، هنا صحيح، ولكن العالم أيضا تغيّر، من غيّر الآخر؟ هل نحن غيّرنا العالم أم العالم غيّرنا؟ لا يهمّ.

فالعالم لم يتغيّر باستمرار ونحن أيضا وسمة كبار الشعراء هي الإمساك بلحظات المنعطفات الكبرى.

من «ألواح» إلى «ميتافزيقا وردة الرّمل» تتواصل الرّحلة ممتعة ومثيرة ودراميّة، دون شك، في تحوّلاتها ان على مستوى الصّورة الشعرية أو على مستوى الإستعارات والدّلالات لتعكس رحلة جيل سمّاه ذات مرّة حسونة المصباحي «الفتية الشرسون».

---

*) قدمت هذه المداخلة في إطار نادي كتب وقضايا بدار الثقافة ابن خلدون بعد حصول المنصف الوهايبي على جائزة البنك التونسي...

وكان ذلك في شهر ديسمبر 2000 وقد أدار اللقاء الكاتب رضا الملّولي

# قراءة في «ديوان النّساء» لجميلة الماجري

الهادي الجطلاوي*

إن قراءة الشعر من أصعب ما يقبل عليه الناقد لأنّ الشعر كلام متمرّد على نواميس اللّغة متجاوز لحدود المعنى مخترق لحدود الصوت محلّق بالألفاظ في فضاء من الخيال رحب وحافر بالأصوات في بحر من الدلالة عميق. ولذلك فإنّ من النقد الشعري مالا يتعدّى إنشاد الشعر والإرتخاء إلى ما قد يثيره الإيقاع والنظم من العوالم والرؤى ومن النقد ما يريد أن يكون إبداعا في إبداع وكلاما في كلام لا يتقيّد فيه بصارم البحث ودقيق النظر ومن نقد ومن نقد الشعر قراءة متأنّية وفحص دقيق وتفكيك مقطّع لأوصال النصّ متأمل في الجهاز الفنّي المستخدم في إبداع النصّ تأمّلا يفقد النصّ ساعة تحليله عذوبة الوقع وماء البلاغة وروعة الأدب. وهذا الضرب من الدّراسة على مافيه من تعنيف للطيف الشعر وجميل العبارة منهج، في ظنّنا، كفيل بإدراك خصائص الكتابة الشعرية والوقوف على أسرارها والعلم بقيمة التأليف بعد تفكيكه.

ومثل هذا المنهج قد لا يتناول من النصّ الشعري إلاّ وجها من وجوهه فلا يركّز عند النظر إلاّ على الميزات البارزة في بنائه وأسلوبه وهو بذلك محتاج إلى مايكمّله ويثريه وعلى قدر ثراء النصّ وعمقه وشعريته تتعدّد قراءاته وتتفجّر طاقته وتأويلاته.

وفي هذا المقام الذي يتاح لنا فيه تقديم «ديوان النّساء» للشاعرة جميلة الماجري يحسن عند التوجّه إلى أسلوبه الشعري النظر أوّلا في خصائصه الشكلية.

إنّ الدّيوان من الحجم المتوسّط في مائة وخمس وعشرين صفحة حرصت صاحبته حرصا جليّا على اخراجه إخراجا أنيقا في لطف ملمسه ونتوء عنوانه وتناسق ألوانه. فكانت الكناية عن الأنوثة في غلافه ساطعة في اسم الشّاعرة وعنوان الدّيوان «ديوان النّساء» ولوحة الغلاف والأنوثة قائمة في ظهر الغلاف متمثّلة في نصّ شعري له عند صاحبة الدّيوان مكانة خاصّة فهو فاتحة الدّيوان وخاتمته. وهذا القصيد في عنوانه ومحتواه كناية عن المرأة لؤلؤة قلّ ما يجود الزمان بمثلها.

ولم تشأ صاحبة الدّيوان أن ترسم عالم النّساء على صفحات بيضاء عادية بل كان من لزوم مالا يلزم أن انتقشت الحروف على الورق الملوّن وإذ يتوقّع الناظر أن تكون صفحات الديوان في لون الورود وهو اللون الرامز للأنوثة يفاجأ بأوراق زرقاء في لون السماء رمز الذكورة، فإن كان هذا من محض الصدفة ومقتضيات الإخراج فإنه من حقنا أن نؤوله بما يناسب غرض الديوان على أنه الحفر بالحرف على صفحة الرجولة. ذلك أن الرّجال هم الطّرف المخاطب في المقام الأول في هذا الديوان وقليلا ما كان مصرحا بهم وكثيرا ما كان مسكوتا عنهم لكنهم الغائب الحاضر المعني في كلّ صفحة من صفحات الدّيوان.

## ملاحظات في الإيقاع

تضمّن الدّيوان إحدى وعشرين قصيدة متفاوتة الطول متوسطة الحجم وهي منظومة في الشّعر الحرّ منخرطة في الشكل الدّارج في الشعر العربي المعاصر وفي الديوان قصيدة نشاز يتيمة عمودية منظومة على البسيط عنوانها

*جامعي تونسي، عميد كلية الآداب بسوسة

الهوى القيرواني وهي منصهرة داخل المجموعة لا تتميّز بموقع خاص أو غرض مختلف ولعلّها تعبّر عن موقف من الشاعرة لا يتنكر للتوزيع الخليلّي التقليدي ولكنه ، إلى حد الآن ، يفضّل عليه النظم المتحرر في استخدام الوزن والقافية دونما عجز عن اخضاع الكلام لقيود الشعر التقليدية.

فمما اتّصف به الإيقاع في هذا الديوان أن جميع القصائد فيه كانت موزونة خاضعة للتفعيلة وإنما كانت الحرية في توزيع التفعيلة على أسطر شعرية تطول وتقصر بمقتضى ما تتطلّبه الدلالة . وكانت التفعيلة ، هنا موحدة ولم تكن مزدوجة وخضعت جميع النصوص لإحدى تفعيلتين هما فعولن ومتفاعلن فيما يناسب المتقارب والكامل مع ما يجوز في التفعيلتين من العلّة والزحاف وكانت تفعيلة الكامل طاغية نسبيا على تفعيلة المتقارب (12من21) ويبقى السؤال لدينا معلّقا في صلة هذين الوزنين بعملية الإنشاء بين الذات المنشئة والغرض المطروق والإيقاع المطرب.

ومثلما كانت القصائد موزونة فقد كانت مقفاة تقفية حرّة لكنّها قائمة وحاصلة بأشكال مختلفة. فقليلة هي القوافي المتتالية تتاليا كلاسيكيا كالذي في الصفحة 33 (في حمّام النّساء) :

**خلّي الماء يندفق**

**كونٌ من الأسرار ينفتق**

**أو : ثم استوت**

**نورا .. فضاءت في الدّخان وأشرقت**

**وسط الرّخام مضيئة... وتوقّدت ( ص 36).**

أمّا الغالب على القوافي فأن تكون متباعدة تفصل بينها أسطر لكنّها مع ذلك متحكّمة في القصيدة من أولّها إلى آخرها وتمثّل القافية فيها محطات دلالية فاصلة (انظر مثلا قافية الفاء في كهرمانة» ص 45 . «وأنثى المدينة» ص 49 . و«أنثى الله» ص 75.

ومن طريف ما يلاحظ في القافية أن تكون في قصيدة «قاموس الرّجال» في مقطع من مقاطعها، قافية جاءت أصواتها محاكية لمعناها فدلّت القافية السّاكنة فيما يلي دلالة بليغة على الزئبقية :

**رجل ... كمفترق الطرق**

**خطِرٌ... نزقْ**

**مُضْنٍ ومكتظ.. مريب في الهوى**

**لسِنٌ... لبق (ص 119)**

ولو زادت فيها زلق وزئبق ما كانت إلاّ وافية بالمعنى مجسّدة له.

ثمّ إنّ من المواضع ما يتكثّف فيه الإيقاع فينزاد إلى القافية ترديد صرفيّ وتركيبيّ موقّع. من ذلك :

**والنور محتفل بالبعث منذمل**

**والجمر متّقد**

**في الماء مشتعل (ص 35)**

وبما أنّ الشّعر الحرّ لا يقوم في إيقاعه على القافية بقدر مايقوم على الترديد والتّوازن الصّرفي والتركيبي فإنّ من الإيقاع ما قام على الترجيع كتكرار «ما» النافية فيما يلي:

**كذبوا جميعا مادرَوْا**

**سرًا وحيدا في ممَالكِنَا وما**

**خبروا مسالكنا وما .. (ص 17)**

**و : ... في التّيه ضاربة ... فما**

**فتحوا مراتيج القلاع... وما (ص 19)**

ومن الترجيع المستغلّ للمناسبة الصّرفية والنحوية قولها

**كذب الدّعاة فقد**

**ظنّوا وقد وهموا وقد**

**جدّوا وما بلغوا وقد**

**ناؤوا بما حملوا... فما**

**سادوا وما وقفوا (ص 18)**

علما بأنّ الغنم من هذا الضرب من الإيقاع يتجاوز الوقع الصوتي الموسيقي لينهضَ بدور دلاليّ معظم لما جاء من «هم» مشهّر به ومسفّه له.

**أغراض الدّيوان**

ليس هذا الدّيوان شتاتا من قصائد مختلفة الأغراض متباعدة المعاني قيلت في مناسبات مختلفة وأحوال متنوّعة وإنما هو إحدى وعشرون طلقة في قلوب النّاس والرّجال أو في عقولهم تدوّي بتمجيد المرأة وتعظيمها كائنا حيًّا وروحا وقادة وقلبا نابضا وفعلا جليلا ولذلك فإن هذا الديوان هو فعل امرأة تمجّد نفسها وبنات جنسها من موقع اختصاصها بسلاح الحرف وقوّة العبارة. وما كانت الشاعرة في حاجة إلى النظم في هذا الغرض لولا ما تجده في نفسها ومحيطها من إنكار لشأن المرأة أو ما ينتابها من تخوّف على مكاسب تحبّ أن تدعّمها وتخشى عليها إن لم تتعهّدها أن تفرّط فيها. وخصم المرأة المتوقّع والمصرّح به في معركة الوجود والبقاء هو النّاس عامّة والرّجال خاصّة. ولذلك فإنّ القضيّة لا تتعلّق بالمفرد وإن انطلقت منه بقدر تعلّقها بالجنس بأكمله. وفي الدّيوان أدلّة كثيرة منها عنوانه نفسه وهو «ديوان النّساء» فنحن لا نحبّ أن نفهم الدّيوان على دلالته الإصطلاحية المتداولة فقط وهي أن يكون الدّيوان المجموعة الشعرية فيكون المعنى من ديوان النّساء هو شعر النّساء كما تقول ديوان المتنبي أي شعر المتنبي فنسبة الدّيوان إلى النّساء بهذا المعنى قليلة الإفادة ضعيفة المعنى وإنما نفهم الدّيوان هنا بمعناه اللّغوي الأوّل وهو على قول ابن منظور في اللّسان : مجتمع الصحف أو على قول ابن الأثير : الدّفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء (اللّسان مادّة د-و-ن-) فيكون ديوان النّساء مدوّنة أو مجتمعا أو محفلا نسائيا. فإذا ثبت فيهنّ معنى الإجتماع نبّهت لفظة الدّيوان إلى صيغة الإجتماع وشكله فهو اجتماع في كتاب ورد فيه ذكرهنّ لا في إحصاء إداريّ بل في صياغة شعرية انفردت فيها كلّ أنثى بقصيدة.

ثمّ إنّ ما في عنوان الدّيوان من إطلاق واستغراق جامع للنّساء على مختلف العصور والأمكنة ومختلف القضايا والأزمات والمحن يجعل تخليص معاني الدّيوان المتشابكة المترابطة أمرا على الباحث عسيرا قاصرا عن الوفاء بها ومخلاً، عند الفصل فيما بينها، بشرط التلازم والتفاعل بعضها ببعض. وأهمّ ما بدا لنا في معاني الدّيوان :

1) استدعاء نساء من التاريخ في أزمنة متباعدة وأمكنة مختلفة وجنسيّات طغى عليها الجنس العربي في دلالات تختلف باختلاف الشخصيات النسائية التي استأثرت كلّ منها بقصيدة وصرّح بإسمها عنوان القصيدة أو هامش العنوان وفيه إهداء. وفي القصيدة توظيف للشخصية الرّمز فالقصيدة الخامسة عشرة مهداة إلى علّيسة مؤسسة قرطاج تعظيما للمرأة التي تحوّل الحلم واقعا سياسيا عظيما قالت :

**هلاّ كشفتِ لهم إذن**
**كيف البحار تصير خاضعة**
**لأحلام النّساء ؟ (ص 92)**

وانتهت القصيدة بقول الشاعرة :

**ويظلّ للتاريخ عطر كلّما**
**شادته أحلام النّساء (   )**

والقصيدة العاشرة عنوانها نخلة وهي مهداة إلى سكينة بنت الحسين وقد استدعتها الشاعرة كما استدعى أبو فراس الحمامة في حبسه صبرا وعزاء، وممّا قالته الشاعرة في سكينة :

**وقد كنتِ أوّل أنثى**
**إليها تُشدّ الرحال**

**ومازلت آخر أنثى**

**إليها الشتيت يؤول**

**ومازلت أطول صومعة في**

**كتاب النساء ... (ص 66)**

ووصفت القصيدة الثالثة عشرة مجلس ولأدة رمزا لخالص الحبّ والشعر، وكانت القصيدة التّاسعة في الجازية، وأهديت القصيدة السّابعة إلى تمثال كهرمانة في بغداد... فدلّت هذه القصائد على أنّ ديوان النساء اعتزاز بتراث عريق وتأصيل للكيان النّسائي في سجّل الأبطال والخصال.

غير أنّ هذا الدّيوان لم يعْتدّ بالماضي اعتداده بحاضر المرأة، ولم يعتدّ بالمرأة العربية اعتداده بالمرأة التونسية ولم يعتدّ بالمرأة التونسية اعتداده بالقيروانية. وإنّ من الدّلائل الصّريحة على ذلك كلمة الإهداء في رأس الدّيوان، وقد جاء فيها : إلى المرأة التونسية مجدا على مجد، وفي العبارة إقرار بمجد سابق ينضاف إليه مجد لاحق يؤكده ويثبّته.

وإنّ من الدلائل على ذلك تخصيص خمس قصائد على الأقل في حبّ القيروان وهي : «الهوى القيرواني» وقد تميّزت بنظمها الخليلي ، و«محاريب القمر» و«ريحانة» و«أنثى الله» و«أنثى المدينة». وقد تماهت في القيروان المدينة الأنثى والشاعرة الأنثى والقيروانية الأنثى. والقيروان هي عشق الشاعرة ووجعها.

إنها، من جهة كعبة العشق والجمال والعطر والبخور والأصالة والإبداع، ووجهها النّير هذا تضيئه أقمار النّساء وشموسهنّ. والقيروان من جهة أخرى مدينة الجحود وجرح في القلب وركن مظلم يسوّده رجالها، فريحانة الوليّة الصالحة التي قوّضت من مقامها كانت فرصة ليتوجه إليها النص بقوله :

**أتدرين سيّدتي ما يقول الرّجال**

**إذا ما النّساء ولين**

**وما يفعلون ؟!**

**وكيف يغارون من سطوة المجد إن أنثت**

**وجاءت حشودُ المريدين كيما**

تفيء إلى ظلك ؟ (ص 86-87)

ثمّ قال لها النصّ :

**أسيّدة الحيّ لا تحزني ... إنّهم ما دروا**

**عناد النّساء واصرارهنّ ( ص 88)**

وإنّ القارئ لقصيدة «أنثى المدينة» لتنكشف له بجلاء هذه المواجهة بين النّساء والرّجال في حبّ القيروان وأن المتكلّمة وهي الحريصة في الدّيوان وفي هذه القصيدة على الإختفاء وراء ضمير النّسوة الجمع لانتمالك من تشخيص الألم فتنطق بضمير المفرد وقلّما نطقت به في هذا الدّيوان قائلة :

**لماذا ؟**

**يغارون من أنّني إذ أجيئك أغدو**

**بطول الصوامع فيك**

**وطول النخيل**

لماذا ؟

**يغارون من فيض هذا الهوى**

**لأنثى المدينة إن سلّمت**

**تجاوب**

**في كلّ قلب صدى (ص 49-50)**

لقد تناولت بعض قصائد الدّيوان عالم النّساء اليومي والإجتماعي والعقدي. فقصيدة «محاريب القمر» واصفة للإبداع النّسائي في صنع الزربية القيروانية أشكالا وألوانا بديعة، وقصيدة «ريحانة» وصف للجوّ العجيب عند ضريح الولية الصالحة شموعا و بخورا وتمنّيات ووعودا. وقصيدة «سوق النّساء» وصف للعالم النسائي السّحري بعطورهنّ وأحلامهنّ. قصيدة «حمّام النّساء» وصف لعالم خيالي ساحر وجوّ عجيب يمتزج فيه جسد المرأة بعناصر الكون المتناقضة من نور ورخام وماء ونار وجمر وعطر

وورد وطين.. وقصيدة «تصفيح» وصف متوتّر لعالم عجيب غريب فيه بنت ضحيّة حولها سبع عجائز يجرحنها سبعة جروح ويطعمنها سبع زبيبات مغمّسة في الدّم ويفحّجنها على النّول سبع فحجات... إنّه عالم النّساء بما فيه من روائح وألوان وأشكال ومشاكل وأحلام وأوجاع.

ويبقى ديوان النّساء في نهاية المطاف ديوان العشق. والعشق، وإنّ تفرّدت به بعض القصائد، مبثوث في الحقيقة على ورقات الدّيوان كلّه.

وأولى خصائص العشق في هذا الدّيوان أنّه عشق لا اعتبار للجسد فيه ،يتوقّع المتوقّع أن قصيدة «في حمّام النّساء» ستكون وصفا جسديًا لمفاتن المرأة، فإذا قرأها بعين الشاعرة رأى في جوّ الحمّام، في ناره وبخاره ومائه وطفله أن العناصر التي أنشأ منها الله الإنسان قد توفّرت وأنّ المرأة في الحمّام محاكية للحظة التي خلق فيها آدم. فهي الخلق المتجدّد وهي لحظة البدء يتكرر.

ويتراءى لك أنّ اللغة عندما تتلفّظ بالعشق ترتقي إلى المصطلح الصّوفي وتحلّق في عالم اللّه . فتقول:

**فإذا أتيت غدا لباب اللّه يشرعه**

**وأتواهم**

**يتدافعون... وبابه الموصود ما بلغوا**

**فالله يعرف من في العشق خُلّصُهُ**

**والله يعرف من**

**في العشق ما خلصوا (ص 114)**

أمّا ثاني خصائص العشق هنا في أنّه عشق، وإن تعلّق بالرّجال، (فإنه) متعال عليهم لا يفهمه الرّجال ولا يرتقون إليه. فكان من مميّزات هذا الدّيوان البارزة القطيعة ما بين الرّجال والنّساء بل هي المواجهة التي تفضي إلى ضرب من الغرور و الكبرياء والتعالي من لدن المرأة. ففي قصيدة «اغتراب الهوى» بدّل الرّجل بنت بلده بأجنبية وما درى أنه بدّل ربيع الوجود وهبّة الفلّ والياسمين وفيء الدّوالي ونخل الصحاري الأصيل... بنخل الشوارع وثلج الشمال. وفي قصيدة «مدن النّساء» تتّهم جماعة النّساء المتكلّمة جموع الرّجال الغائبة بقولهنّ :

**كذبوا جميعا ما دروا**

**سرًا وحيدا في ممالكنا وما**

**خبروا مسالكنا وما**

**ظفروا بأسرار الهوى منّا و لم**

**يتجاوزوا الأعتاب في**

**مدن النّساء (ص 17)**

وانظر قول الشاعرة على لسان ولادة :

**فلا تتهافتي في الحبّ**

**إنّ الحبّ ما جهلوا**

**وإنّ الحبّ ما لم يخبروا مثلي أنا أبدا**

**أحبّ العشق قبل العاشقين فإنّنا نفنى**

**ويبقى العشق متقدا (ص 80)**

وفي سياق هذه العلاقة المتأزمة بين الرجل والمرأة تغيّر أسلوب الدّيوان لتنطق القصيدة بضمير المتكلّم «أنا» وتواجه مخاطبا مفردا ذكرا «أنت» في قصائد معلومة فتوجّهت قصيدة «مذهب» إلى الرّجل بالخيانة في العشق، وتوجّهت إليه قصيدة «قلب امرأة» بالتحذير والتّوعّد، وتوجّهت إليه قصيدة «لؤلؤة» بالإستصغار والإستخفاف والتهكّم. فإذا كانت هذه القصيدة هي مطلع الدّيوان ونهايته أدركنا أنّ ديوان النّساء هو ثأر للنّساء من الرّجال أو ثأر للمرأة من الرّجل أو ثأر لامرأة من رجل أو هكذا خيّل إلينا .

أمّا ما كان من إهداء قصيدة «وردة الرّمل» إلى الطّاهر الحداد اعترافا له بالرّيادة في الدّفاع عن المرأة وتمجيدا لذكراه، أو ما كان من صفات الرجولة تذكر لبعض أصناف الرّجال في قصيدة «قاموس الرّجال». فإنّ ذلك يكاد لا

يغيّر من الموقف العام السّائد في الدّيوان من الرّجل عديلا لا عدل فيه ولا معادلة.

فكان من أبرز خصائص هذا الدّيوان في علاقة الرّجل بالمرأة بل في علاقة المرأة بالرّجل أنها على وجه ثابت من المواجهة والتّوتر في المعاملات الإجتماعية والوجدانية لم نر فيها عاشقا من الإناث والذكور يذلّه العشق ويضنيه ويفنيه فيمَنْ أحبّ وإن طغى المحبوب وتجبّر وتكبّر، ولم يكن للقلب من القوة ما للعقل ولم يكن له من الإرادة ما به يزعزع المواقف، ومن الحرارة ما به يذيب الجليد.

**اللّغة في «ديوان النّساء»**

لئن جاء غرض الدّيوان في قضية اجتماعية هي تمجيد المرأة كائنا ووجدانا ممّا يمكن أن تضطلع به الكتابة النثرية النقدية والأدبية فإنّ اللغة التي تناول بها الدّيوان هذه القضايا كانت في الجملة لغة شعرية تستخدم الرّمز والكناية في معالجة المعاني فاستدعت الأعلام الرّموز وأنطقتها وحاورتها ووظّفت الأماكن الرّموز وأغدقت عليها جوّا مخيّلا خرافيا عجيبا واستعارت للمعاني في الحبّ والعظمة والرّفعة والجمال وغيرها تشبيهات وصورا الصلة فيها بين الحقيقة والمجاز من المتانة بحيث لا يستعصي على القارئ التنبؤ بمقاصدها دون تعقيد في التركيب ولا إسفاف في العبارة، وإنّ من المواضع في الدّيوان ما تلتزم فيه الشاعرة بأصالة الصورة العربية وجمالها التزاما لا يحول دون الإجتهاد والإضافة في منهجه.

قالت في قصيدة «اغتراب الهوى»

**فكيف عشقت عيونا**

**أتت خارج الشّعر**

**خارج تاريخ عشق العيون**

**لدينا؟!**

**وكيف تغازل شعرا**

**إذا لم يكن فاحما في السّواد**

**وليس أثيثا...**

**ولا يستجيب**

**لوصف امرئ القيس. وامرأة لا تكون**

**كهند و ليلى. (41-42)**

ولذلك نبع الرّمز من المناخ العربي فكانت المرأة نخلة ثابتة عالية صابرة في الصّحراء أو وردة متفتّحة في الرّمل، وكانت الطبيعة منتصبة بفصولها وكواكبها وعناصرها من نار ونور وريح و ماء...

فإذا سما النّص بالمعنى فشقّ وتجرّد وتشوّف حضرت نفحة صوفية خلص بها العشق وهنا القلب شوق وظمأ وحلولا (انظر القصائد 9و10و19).

وإنّ الصورة لتتكثف في القصيدة الومضة، وهي نادرة في هذا الدّيوان فيدور التركيب حول صورة نواة تشبيها أو استعارة ترشيحية متفجّرة وقد تمثّل هذا الإبداع في قصيدة «قلب امرأة» (وانظر أيضا قصيده لؤلؤة) قالت :

**قلبي... من البلّور ... فاحذر**

**إن كسرته**

**أنت تُجرح ثمّ..**

**يجرفك الدّم**

فقام الكلام على تشبيه، وجه الشبه فيه محذوفٌ ولكنّه ظاهر ومن التشبيه تولّدت استعارات فيها تكسير وجرح ودم وانجراف لا تخفى على القارئ دلالاته وشبيه به قول الشابي في المستعمر :

سيجرفك السّيل سيل الدّماء ويأكلك العاصِفُ المشتعل

وعلى هذا قَامَتْ الصّورة في الدّيوان تعلن عن سلوك في الإنشاء يقوم على سنن العرب في الخطاب المجازي و يقوم على التخييل بالإشارة والكناية والغموض دون إبهام أو تفريط في الدلالة.

# برومو سبور... مواجهة الواقع بالسّخرية والفضيحة

عذاب الرّكابي*

(1)

ترى هل هو شبح (هزي ميللر) هذا الذي طارد الرّوائيين العرب وجعلهم يكتبون سيرهم الذاتية بهذا الشّكل المثير الجارح...!؟

(2)

«أنا زرع شيطاني لتربة شيطانية» هنري ميللر - مدار الجدي .. أهي صرخة النص أم صدمته هذي التي أسسّت لهذا النّوع من الأدب يقوم على التعرية والفضيحة والكشف، وحتّى البذاءة..!؟ وهل الواقع مأزوم، ومريض، وخانق، ومثبط للعزائم لهذا الحدّ... ولا يمكن التفوّق والإنتصار عليه إلا بالسّخرية والتعرية والفضيحة..!؟؟ إنّها محاولة جادّة لقراءة نصّ مقلق... ومثير..!

(3)

«لويس عوض» في كتابه «أوراق العمر» - سيرة ذاتية كشف بلسان جريء سليط، ولغة نابية بذاءة المجتمع، وبذاءة التّاريخ، وبذاءة السياسة أيضا... و«محمد شكري عيّاد» في «العيش على الحافة» هو الآخر قد خلع جبّة الواعظ الهادىء ليمسّ بأسلوب فضائحي بذيء أحيانا ما هو مقدّس ابتداء من العائلة متمثلة في الأب - السلطة العليا، وانتهاء بالمجتمع الذي لا بدّ من الثورة عليه، ومحو سلبياته وبذاءته ببذاءة أكبر ... وأشدّ... وأبشع..!!

(4)

«أريد أن أعلن إنّي خائن للجنس البشري».. هنري ميللر - ربيع أسود، و«حسن بن عثمان» في روايته «بروموسبور(1)» لم يستعر لسان أيّ من هؤلاء، بل شحذ لسانه هو، وهيّأ أصابعه الجسورة لتكون حزمة من السّهام غير الرحيمة... لتأتي بذاءته أجمل وأوجع، في إيقاع روائي مرعب، بشع، مؤلم، وجارح، وكوميدي حدّ السّواد والبكاء والإختناق..!

(5)

وبلغة هادئة جدّا تبدأ الرّواية ببأس حجريّ قاتل : «لا حبّ، لا بؤس واضحا، لا ميراث موعودا، لا أمل في الثروة.. لا أمل في تبديل الأحوال» (ص14) وكأنّ الكاتب أراده مبرّرا لما يأتي من سخط، وانسلاخ، وغضب، وتمرّد على المجتمع : «إنّ مسألة الإرتباط المعنوي والعاطفي بالآخرين غدت في نظره سخيفة، ولا معنى لها، وتنطوي على كثير من الزيف...» (ص15)، ومواجهته، بل التغلّب عليه، وتمريغ أنفه بتراب سلبياته وأخطائه، أداته هذا الأسلوب الفضائحي العاري تماما : «مادام المرء له آلة الجريمة الجنسية فإنّه سيستخدمها متى توفرت الفرصة والأسباب، وبوجود تلك القبضة الناتئة بين الفخذين المشقوقين بصورة لا إلتام يرجى لهما إلا حين يسدّهما عمود من اللّحم الصّلب، فكل شيء يمكن توقعه، خصوصا والمرأة تذهب وتجيء والشيء نفسه عالق بين فخذيها، ولامجال لانتزاعه ووضعه في الثلاجة كي لا يفسد...» (ص17) معطيا بعض الشخصيات الأساسية في الرواية ظلاّ كاريكاتيريا ليمنح القارئ لحظة ضحك وبكاء معا، كما حصل في شخصية (الإمام سعدون) : «كان الإمام مغرما بكرة القدم ويتابع مقابلاتها باستمرار، وله ثقافة موسوعية بكلّ ما يتصل بتواريخ نشوء الفرق الرياضية

* كاتب عراقي

وأعمار اللاّعبين وأصولهم الإجتماعية والجهوية وتنقلاتهم بين الفرق على الصّعيدين المحلي والعالمي...» (ص19)...!!

فهل هي بشاعة الواقع ومرارته هي التي جعلت (الإمام سعدون) إمام الجامع، يتحاشى قول الحقّ، ويقوم عن وعي بتجميل الجرم والخطأ : «إنّ الروبافيكاجيين يتمتعون بنساء الخلق فأغلب حرفائهم نساء»... «انّ عمليات المقايضة سلعة بسلعة بين البائع وحريفته، مسألة معهودة في هذا القطاع : الجسد مقابل الثوب»..

«كان الإمام سعدون منشرحا وهو يستمع إلى مثل هذا القول، الذي يضفي على زملاء مهنته نوعا من البطولة الجنسية، أكثر مما يتهمهم بالفساد والزّنا...» (ص 23)

وربّما بشاعة الواقع أيضا هي التي خطّت هذه السّخرية المرّة، وليست أصابع الروائي، وجعلتها أداة كشف لحلال محلّل :«هذا جميل... ورقة البرومسبور تديّنت على يديك سيدي الشيخ، وغدت بمثابة الدعاء ذي الثمن المعلوم...» (ص 25)، ثم شطب، وتسفيه ماهو موجود، وما سيوجد تسعفه مفردة قاسية، حادة وكريهة، قادرة على شفاء غليله :

«إنجاب الأطفال مسألة تحيّر عبّاس تماما،يرى فيها دناءة تبلغ مرتبة الإجرام، ... أن تحيي إنسانا أو أن تميته فذلك سيّان عنده.. فماذا يعني أن يتبوّل المرء بطريقة مرتعشة ولاهثة في فوّهة نتنة، فيتسبب بذلك في مخلوق يكره على الحياة فيستقبلها بالصّياح، والنّحيب» (ص27).

مرارة الواقع أقلقت (عبّاس) كثيرا، بل جعلت منه انسانا آخر «أنّ ثمة نوازع عدمية تنتابني في المدّة الأخيرة، وغدت تسيطر عليّ سيطرة مطلقة وتحوّلني إلى شخص ينظر بقتامة للوجود الإنساني برمته»، وكأنّ الواقع الذي يعيشه، و«نيتشة وميلر و«أبا العلاء المعرّي»، كلّ هؤلاء يدفعونه لقتل الذئب الذي في داخله، بإجراء عملية جراحية تعدم النّسل عنده وتكفّه عن الإنجاب :«أرى هذا الوجود عبثا وشقاء لا أمل فيه..» (ص 38).

ومرارة الواقع، وبشاعته هي التي أضفت على اسلوب (سيسي) سوداوية قاتلة، مقيتة، حاول أن يلبسها ثوب النقد الذاتي الإجتماعي : «إنّ العبودية أكثر أمانا من الحرية التي تستدعي بذل الحياة ذاتها للحصول على لحظة منها» (ص 40)...

«وأكدح الذّهن للظفر بمسوغات نظرية وفكرية لهذه اللعبة الشيطانية التي أصبحت دين البشرية الجديد...» (ص 40)..«لا سبيل أمامنا للتخلّص من أدوارنا سوى الإنتحار...» «ينبغي إشاعة النفور من الإنجاب بمثابرة وبلا مثابرة وبلا أدنى تهاون، ذلك هو آخر أعمالنا الثورية...» (ص 41).

هذه السوداوية نفسها التي ميّزت اسلوب (هنري ميللر)، ولكن على شكل لعنات ضرورية، وشتائم ملائكية : «لم أقترف أيّة جريمة، اللّهم سوى أنّي مولود هنا..» ربيع أسود (ص97).



(6)

«برومسبور» إدانة للواقع، وتصحيحه، فالخلاص من منغصاته، وكوابيسه لا تكون بالغياب الذهني والجسدي والضّياع : «صار النّاس، في المدّة الأخيرة، يتكلمون بأصوات مسموعة مع أشخاص غير مرئيين وهم سائرون في الطّريق العام..» (ص 45)، ولا بالركون للفاقة والبؤس والفقر الذي يستشري ويأخذ أشكالا أشدّ بشاعة، ولمجرّد الوقوف عنده يصدأ الزّمن وتترهل النفوس ، لتجد شفاءها في السّخط واللغة البذيئة : «تخيّل هذا الشّعب الذي تضاعف عدده أكثر من خمس مرات منذ الحرب العالمية الثانية بدون روبافيكيا، لشاهدت عري مؤخرات النّاس..» (ص 47).

الخلاص من الواقع البذئ، والسيطرة عليه لا تتحقّق إلاّ

ببذاءة أشدّ وأبشع : «قال إن المرأة كلّما ذكّرت الرجل بالمرحاض من حيث شكلها، كان مظهرها أحسن وأنوثتها أرقّ ، لأن علاقة الرّجل بالمرأة في ذراها الشاهقة، عندما يعلو الشهيق، هي علاقة متبوّل بمبولة..» (ص 63)

إنّ لغة (قلة الأدب) قد حرّكت في شخصية (الإمام سعدون) شيئا له رائحة التمرّد حين اعترف أنّه قبل (فائزة) كان جسده أخرس، وهاهو جسده يحيا من جديد، في لغة راقية تحتاج إلى أكثر من إصغاءة : «أنّ الجماع هو ضرب من الإبتهال الجسدي يوحّد البدن والرّوح في صلاة خالصة لوجه الرّب، يسبغ عليها بركته في كلّ حين..» (ص71)، «شعر كما لو أنه كان ميتا فأحيي، أو نائما فاستفاق، موجة أخرى من الشباب ألمت به ، فأشرقت حواسه من جديد وأينعت مشاعره خضراء نضرة..» (ص 86).

(7)

في الرّواية إثارة، واحتراق من الصّعب إيقافه... وعبث في الحواس، تجسّد في شخصية (الإمام سعدون) أكثر، وأعمق، اضطرابه، وتحوّله المفاجيء من مكتشف ماهر سعيد بلغة جسده الذي كاد أن يصبح مشلولا، إلى مستودع مرعب من الأوهام والتّداعيات غير المقنعة وهو يتحوّل إلى (مصران بول لا تقوم له قائمة)!!

ثمّ اضطراب في رؤى (سيسي) حين تنتابه لحظة ضعف ويأس، وكأنّ الواقع يشهر سكّين سلبياته بصلافة وتحدّ، جعله يحني رأسه بعد هذا الشموخ، والنبوغ، والتفوّق، الذي حققه في (برومسبور) حتّى صار يحلو له الإعتراف بإصابته المتأخرة، ربّما بجرثومة التكسب من الأدب والرّبح السريع القاتلة ...وهاهو يخلع قناعه رغم اعترافه بأنّ : «الأشدّ خطورة من بقاء الأقنعة هو خلعها» (ص 101)... ترى هل هو الإحباط واليأس، هذا الذي غرس فيه هذا القدر من الرّعب الذي أفقده الإحساس حتّى بوجود الخير : «أنّ الخير كان قليلا في ندرته ويتعذّر الحصول عليه بسهولة بخلاف الشرّ» (ص 101)... أم هي مجرّد أوهام وهواجس أراد أن يحقق من خلالها غيابا (مؤقتا) عن الواقع المعاشي ليوهم نفسه أنه لا يراه ولا يعيشه، وهو في الحقيقة غارق في بلباله حتّى أذنيه.!!

(8)

«برومسبور» رواية تعمل عمل الميكروسكوب لتكشف خبايا وأسرار مخلوقات المدينة الغارقة بالسّلبيات، والظواهر المملة الخانقة، فهذه الطبقة المذمومة التي يفرزها مجتمع المدينة المنقاد بوعي وبلا وعي لأخطائه ونواقصه.. طبقية توضحها العلاقة شبه السينمائية بين (صفوة) و(سيسي الكاتب) : «كانت تعتقد أن هذا النّوع من البشر الذين لا يعرفون حدودهم مع أسيادهم يتعين أن يفقدوا العقل حتّى يعودوا دواب مثلما كانوا..» (ص 112) «بالفلوس أعمل به ما أشاء، من السّهل عليّ أن آمر بقتلك لحظة يروق لي ذلك فأنت بعوضة أو أدنى..» (ص 115).

إنّها المدينة ـ الغول كما رآها «اليوت» فعلا...! وإلاّ بم نفسّر هذا النوع من العقاب القاسي ،الظالم ... صنعته هذه الطبقية المقيتة :« قراري لن يكون إلاّ وقت أصل بك إلى فقدان عقلك، أنت لا تستحق عقلا، سأجنّنك، ذلك هو أبسط ثمن أرتضيه لتطاولك على أسيادك» (ص 115)، لكنّ بحث (سيسي الكاتب) عن الخلاص لم يتوقف... هاهو يحاول أن يطهّر نفسه من ذنوبه وأخطائه، وحتّى نواياه الخبيثة بهذا الوابل الحاد والجارف من البذاءة والبشاعة وحتّى القرف تارة : «عندما اقترب الشخص مسافة متر تقريبا من سيسي دار بسرعة مقبلا عليه، وسدّد قضيبه إلى رأس سيسي وراح يشرشر عليه ممطرا إيّاه بوابل من البول...» (ص 114)، وتارة أخرى يسفه هذه الطبقية، بل شطبها من رأسه،

الذي صار مثل خلية نحل بعبارات مأثورة أو حكم من صنعه علّه يطرد أو يخفف من ركض ذلك الغول الذي يسعى لابتلاع مدينة بأسرها : «الفلوس لا تجلب السعادة يا صديقي، السعادة حالة من الرّضى الداخلي ومن الصّناعة الخاصة» (ص 124)، «إنّ السعادة شيء شبيه بالموسيقى» (ص 124)، «السعادة هي دائما بلا سلطان ولا هيلمان» (ص 124)، «أما المال فهو سلطان غاشم بطبيعته، لا يتورع في سبيل نمائه وتعاظمه عن ارتكاب المظالم والعدوان..» (ص 125).

(9)

«برومسبور» كوميديا سوداء..، فارتباط (سيسي) بالواقع المرّ جعله في نظر (عبّاس) منسلخا عنه.. وهذا فصل مضحك مبكٍ : «شوف...خواطرك أو أفكارك هذه هي لانسان لا تربطه صلة بالواقع، كأنّك قادم من كوكب آخر..» (ص 133).

و«برومسبور» سخط أثمر على أصابع الكاتب هذا العقاب الدنيوي العاجل، حين تحوّل العمل إلى مقبرة جماعية خانقة، ضمت أجساد كلّ أبطاله، وقد تمّت محاسبتهم فور نزولهم واستنشاقهم التراب، تراب ذنوبهم وأخطائهم ومعاصيهم : «مات الجميع منذ زمن وأكلهم الدود والتراب، لقد كانت هذه الرواية مقبرة جماعية تفوح منها روائح الجثث المتعفنة» (ص 184)، «لا تهتم جميع الموتى هم مصارين وأمعاء وقذارة خالصة» (ص 125).

ماذا بعد هذه الأحداث السينمائية المتلاحقة!؟ هل أن السّجن الذي انتهى إليه سيسي الكاتب هو لهيب الواقع الذي عاش فيه، وظلّ يلاحقه، ولا وسيلة للتحرّر منه إلاّ بالكتابة... أليست الكتابة فعل تحرر حسب تعبير سارتر..

«السجن هو المكان الوحيد اللائق بأن يعيش فيه هذا النّوع من الكتّاب الصّغار الساخطين مع شخصياتهم القصصية المعذبة...» (ص 195).

(10)

رواية – بروموسبور... مذهلة حقّا !!

وقد جذبتني من شريان قلبي، وهي تمرّغ الواقع بوحال السّخط والنقمة، وأذهلتني كثيرا تمكّن الروائي من تحريك أبطاله بهذا الشكل المرعب.. المثير.. والجميل.!

إنّها مزجت ببراعة نادرة بين التراجيدي والكوميدي واستطاع الروائي (الكاتب) أن يشنق كلّ بطل من أبطاله بحبل أخطائه ومعاصيه، ولم ينس نفسه كواحد منهم، من هذا الواقع الرّث الغارق في المعصية...!

رواية - برومسبور بذيئة ، ساخطة، وجادة أيضا..!

استطاع الكاتب أن ينقل لنا أجواء العبقريّ (هنري ميللر) في (مدار الجدي) و (شيطان في الجنّة) و (ربيع أسود) وو.. وهي بذاءة... وفحش... وتمرّد.. ونقمة، كانت هذه طريقته الفضلى في مقاومة الواقع والمكان والظلمة، والتي لا تكون إلاّ بالسّخرية منه والتعرية والفضيحة..!

«حسن بن عثمان» ... شكرا!! إنّك تكتب رواية جيّدة..!!

إنّها رهان على الحياة أصلا..، حياة جديدة، ليست التي في ذهن (عبّاس) الغارق بوابل ذنوبه، ولا هي حياة (الإمام سعدون) إمام الجامع، وبائع الروبافيكيا والغرائزي، المتعدّد الوجوه، ولا هي حياة الخيانة والإنتقام متمثلة في «سلمى» و«صفوة السمدي»، ولكنّها حياة (سيسي الكاتب) الذي ينقش الحرف، بل يحفره في جسد الواقع البشع ليبدع منه حياة جديدة فعلا، هي حياة الحبّ، والصّدق، والدفء، والأمان، متمثلة في الكلمات. ثروتنا التي لا تنفذ، ولا يمكن أن يصلها الموت..!

1 بروموسبور. رواية. حسن بن عثمان.
1998. طبعة أولى. تونس

# مشكلة الآخر في الفلسفة المعاصرة

ياسين بوغديري *

يبدو أن « الآخر » (l'autre) هو مفهوم قبل أن يكون مشكلا، إذ ثمة مسافة فاصلة بين المفهوم والمشكل على إعتبار أن مفهوم أو الأفهوم (1) أو المفهومة (2) يتموضع ضمن حالة السكون ولا نتعامل معه إلا في مواضع سياقية محددة داخل النصوص الفلسفية وربما هذا الشرط الوحيد من التعامل معه الذي يهبه الحركة وإن كان سكونيا غير أن المشكل يتموضع ضمن حالة الحركة فهو مسكون بالحيرة والسؤال ويدفع إلى التفكير والفارق بين المشكل والمفهوم هو كون المشكل يمكن التعامل معه من خارج موضعه السياقي ، فقد يشترك أكثر من فيلسوف أو مفكر في مشكل ما ، كما يمكن لأي واحد منّا أن يتخذ مشكلا فلسفيا لفيلسوف ما و يتعامل معه بطريقته الخاصة في حين أن المفهوم شديد الإرتباط بالموضع السياقي أكثر من المشكل .

لقد عنونّا الدراسة « بمشكلة الآخر في الفلسفة المعاصرة ولكننا سنتناول « الآخر » كمفهوم (Concept) قبل تناوله كمشكل في الفلسفة المعاصرة بإعتبار أن المفهمة لها أولوية خاصة في الفلسفة المعاصرة وليس ذلك بغريب عن الفلسفة بصفة عامة ، فأحدث تعريف لها يركز على المفاهيم وهو ما نتبينه مع « دولوز »و غتاري » من خلال كتابهما : « ما هي الفلسفة ؟ « (الصادر في طبعته الفرنسية سنة 1991وفي ترجمته العربية سنة 1993(3)

إذا يقولان : « الفلسفة هي فن تشكيل وابتكار وفبركة المفهومات «(4) ومادامت الفلسفة هي صناعة « للمفاهيم ، يصبح من الضروري الإهتمام بالمفاهيم الفلسفية في إهتماماتنا النظرية التحليلية والنقدية ولعل أبرز مفهوم يفرض نفسه علينا وعلى هذه الحقبة التي نعيش بل ربما منذ القرن التاسع عشر وبالتحديد منذ الهيجلية مرورا بالفينومينولوجيا و الوجودية ووصولا إلى البنيوية هو مفهوم « الآخر » وإن كان هذا المفهوم له حضور قوي ومتميز في مواضع «هيجلية» أو« هوسرلية » أو «سارترية» أو«فوكوية » فإننا نفاجأ بعجز «لالند» (Lalande) صاحب أكبر معجم فلسفي عن إيجاد تحديد أو تعريف لهذا المفهوم، إذ نجد في باب « مفهوم الآخر » مايلي : «هو أحد المفاهيم الأساسية للفكر، من المستحيل إذن تعريفه .هو مفهوم مضاد لما هو نفسه ونعبر عنه أيضا بألفاظ متعددة كالمختلف أو المتميز .

نلاحظ أن ما ورد في باب مفهوم « الآخر » بمعجم » «لالند» لا يستوفي ماهية « الآخر » أو حقيقته واقتصر على الإشارة إلى كونه أحد المفاهيم الأساسية للفكر و لكن ما أثار إنتباهنا هو كون «لالند » استنتج عدم قابليّته للتعريف إنطلاقا من التحديد العام والشكلي (أحد المفاهيم الأساسية للفكر ) فهل يعني هذا أن المفاهيم الأساسية للفكر بصفة عامة غير قابلة للتعريف ؟

يبدو أن « لالند » لم يجانب الصواب عندما اعتبر أن المفاهيم الأساسية للفكر من المستحيل تعريفها مثل مفهوم « ماهو نفسه » le mêmeومفهوم « الآخر »

* باحث مهتمّ بالفلسفة

( L'autre ) ومفهوم «الأنا » ( Le moi ) وغيرها من المفاهيم الأساسية بالنسبة إلى الفكر الإنساني.

إن مفاهيم الفكر قد حيرت الميتافيزيقا طوال قرون والآن تحير العلوم الإنسانية في سعيها « لفهم » الإنسان وبشكل خاص فهم حالات الوعي والفكر .

عود على بدء: يبدو أن مفهوم « الآخر » قد إتخذ معنى «القيمة» ( Valeur )فهو قيمة من قيم الحداثة ، إذ الحداثة اليوم تفترض التواصل كضرورة إنسانية ، كما تفترض الانفتاح وهو ما تدّعم بشكل خاص من خلال الأبحاث الانتروبولوجية التي أقرّت بضرورة الإنفتاح من قبل « الأنا »على«المختلف» عنها أو المتميز عنها : انفتاح الغرب على الشرق أو المجتمعات « المتوحشة ».

فعقلانية اليوم هي عقلانية « تواصلية « وغيرية» تنفي الأنانية ( l'Egoïsme ) والأنانة (Solipsisme ) .

من هذا المنطلق سنفهم « الآخر» ارتباطا بهذه العقلانية الجديدة .

فماهي الملامح الأولى لمفهوم الآخر في نصوص فلسفة الحداثة إذا اتخذنا الهيجلية كخط أول في حداثتنا اليوم؟

وماهي الرؤى أو التصورات التي حالت دون ظهور«الآخر » كمفهوم وكمشكل في الفلسفة الكلاسيكية وبالتحديد في القرن السابع عشر ؟

وما الذي يبرر « يقيننا » بوجود «الآخر » ؟

وهل الأنا مدين في وجوده إلى الآخر ؟

وهل يمكن إعتبار « الآخر » كهدم لجوهرية الذات أم ضرورة للوعي بالذات ولبنائها ؟

**1-الملامح الأولى للمفهوم -المشكل (الآخر) في نصوص هيجل :**

لقد قمنا بأشكلة المفهوم ولذلك لقبناه بالمفهوم - المشكل من خلال وضعه في سياقات اشكالية ارتباطا بمفاهيم مجاورة كمفهوم الأنا ومن هذا المنطلق وجب البحث عن الملامح الأولى للآخر كمفهوم - مشكل في نصوص هيجل وبالتحديد من خلال كتابه « فينومينولوجيا الروح » (5).

لقد حلل « هيجل » في هذا الكتاب العلاقة فيما بين الأنا والآخر ،إذ انطلق من الوضع الأول للذات وتتحدد الذات وفق المعجم الفلسفي « لالند » (6) على أساس كونها «الكينونة الفعلية معتبرة على جهة امتلاكها لكيفيات أو على جهة تنفيذها لأفعال » أي أن الوعي بالذات هو وعي بكينونتنا والملاحظ أن الوضع الأول الذي انطلق منه «هيجل» هو الوعي بالذات الخالص والمباشر لنفسه والمتفرد المنعزل عن الآخر ويمكن اعتبار الوعي الأول كوعي « ساذج » و نرجسي » أي أن الذات متمحورة حول ذاتها إذا يقول هيجل : إن الوعي بالذات هو، أولا ، وجود لذاته بسيط مساو لنفسه ينفي من الذات كل ماهو آخر، فماهيته وموضوعه المطلق هما بالنسبة إليه الأنا » (7) فالأنا هي محور الذات والذات منغلقة على أناها أي أن الذات في هذه اللحظة موجودة لذاتها .

ولكن الملاحظ، وفق هيجل في كتابه « فينومينولوجيا الروح » الذي استمد منه النص (الهامش 3) يقرّ بأن كيانات « الوعي متفرقة وتلتقي في البدء على أساس « غرابة » كل واحد منها ومن شأن هذه الغرابة أن تقود إلى التعارض فيما بين « كيانات » الوعي (Les consciences) وتؤدي أيضا في النهاية إلى هيمنة الواحد ة على الأخر ى.

من هذا المنطلق ندرك أن الوعي بالذات المساوي لنفسه يتصادم ويتعارض مع وعي الآخر بل إن حدة التعارض تتضح في كون الوعي بالذات يرى نفسه في الوقت الذي ينظر فيه للآخر على أساس إتيانه من الخارج أي هو منفصل عنه وخارج عن ذاته. ويقر هيجل بضرورة أن يقوم الوعي بالذات بحذف الماهية الأخرى المستقلة لكي « يكتسب اليقين بالذات نفسه كماهية » (8) لأن الآخر بالنسبة إلى الوعي بالذات هو موضوع ولكن الآخر بدوره يعي ذاته ومتمحور حول أناه وينظر إلى الذوات الأخرى كموضوعات عرضية ومن هنا يبدأ الصراع فيما بين الوعي بالذات والآخر ولذلك يقوم الوعي بالذات كما

أشرنا على حذف الماهية المستقلة ولكن هذا الحذف هو حذف له لأنه يرى نفسه في الآخر ولأن الآخر هو ذاته نفسها والذات في مرحلة مواجهة الآخر لم تنجز بعد حركة إجتثاث الوجود المباشر وبالرغم من كون كل وعي بالذات شديد اليقين بنفسه فإنه ليس كذلك بالنسبة إلى الآخر ولذلك يستنتج « هيجل قائلا : « ومن ثم كان يقينه بذاته إلى ذلك الحين مفتقرا إلى كل حقيقة »(9) ويقصد « هيجل» بهذا القول ضرورة أن يعترف الآخر بي كوعي بالذات مثلما أعترف به كوعي بالذات أي أن الإعتراف هو الشرط الأساسي للوعي بالذات وبدونه لا يكتمل مسار الوعي بالذات ، إذ يقول « هيجل » : إن الوعي بالذات هو في ذاته ولذاته إذا كان هناك وعي آخر في ذاته ولذاته أي هي ليست كذلك إلا في حالة تحصل على إعتراف بذاتها من قبل الآخر (10).

وقد بين «هيجل » أن كل وعي يؤكد ذاته لنفسه وفي الوقت نفسه يثبت ذاته للآخر ، إنها جدلية الوعي بالذات والوعي بالآخر و قد جسد « هيجل » هذه الجدلية من خلال جدلية العبد والسيد . إذ يقول « هيجل » متحدثا عن الوعيين ارتباطا بجدلية العبد والسيد :«الوعيان بالذات متضادان ، الوعي بالذات يتضاد قبل كل شيئ مع نفسه إنها دراما اللامساواة بين العبد والسيد (11).

والملاحظ بالنسبة إلى « هيجل »أن هذا الصراع فيما بين الوعي بالذات والوعي الآخر هو صراع « من أجل الحياة والموت (12) .

فالعبد مثلا إختار الحياة بدلا عن الحرية ، في حين أن السيد بالعكس لم يعش حالة الخوف من الموت وأظهر نفسه مستقلا عن الحياة وبإعتبار أن العبد إختار الحياة ، إستنتج «هيجل » أن الحرية لا يمكن الحصول عليها إلا بالمخاطرة بالحياة إذ يقول :

« الفرد الذي لم يضع حياته موضع مخاطرة ( أو لعبة ) يمكن أن يكون بصفة جدية معترفا به كفرد ولكنه لم يبلغ حقيقة هذا الإعتراف الجديد كإعتراف بذات واعية مستقلة (13) .

كما بين « هيجل » أن العبد يحال إلى شيء كموضوع الرغبة ولكن إلى وعي الذي يكون له الشيء هو الأساسي يحال السيد بصفة غير مباشرة إلى الشيء لأن العبد هو الذي يفعل ويطوع الشيء ( Travaille ) الذي يستمتع به ،بصفة غير مباشرة إلى العبد لأن ما يجعل العبد عبدا هو تبعيته تجاه الشيء وإلى الكينونة - هناك الطبيعة وقد توصل « هيجل » إلى إستنتاج رئيسي في جدلية العبد والسيد ، إذ يصبح السيد عبدا للعبد والعبد هو سيد السيد ذلك أن السيّد وإن اكتسب إعترافا بسيادته فإن هذا الوعي بالذات للسيد ليس وعيا حقيقيا بالذات بل هو وعي وهمي بها لأن الذي إعترف به لم يكن سيدا مثله بل عبد والعبد « لا يمكن أن يكون إنسانا «وكي يوجد وعي حقيقي بالذات لا بد أن يعترف به « إنسان مثله » ، أما العبد بفضل عمله العبودي فإنه دخل في صراع مع الطبيعة من أجل إرضاء رغبات سيده غير أن العبد يكتسب ذاته بواسطة العمل ويكتسب حريّته المجردة وبالمعنى الرّواقي للمفهوم، فالعبد هو سيد الطبيعة والسيد عبدا للطبيعة .

كما توصل « هيجل » إلى أن العبد يعيش تمزقا بين وعيه بالحرية كفكرة مجردة وواقعة العبودي الفعلي وهو الوعي الشقي .

إن أبرز ما نستنتجه من فلسفة « هيجل » هو كون الوعي بالذات يستوجب الوعي بالآخر وفي غياب الآخر لا يمكن الحديث عن وعي بالذات حقيقي وفي الوقت نفسه لم تستبعد الهيجلية الصراع كنمط علاقة فيما بين الأنا والآخر .

**2- الرؤى والتصورات التي حالت دون ظهور«الآخر» كمفهوم - مشكل في الفلسفة الكلاسيكية وبالتحديد في القرن السابع عشر :**

يبدو أن التصور الذي حال دون ظهور « الآخر » كمفهوم مشكل هو ما يسمى بالأنانة ( Solipsisme ) وقد حدد المعجم الفلسفي « لند» (14« الأنانة» ( Solipsisme )

بمعنى « المنظومة المعروضة كنتيجة منطقية ناتجة عن النمط المثالي للمعرفة وتتحدد على جهة كونها تتبنى أن وعينا بالأنا الفردي بتمظهر اته الذاتية هو كل الواقع وأن « كيانات » الأنا الأخرى التي لنا عنها تمثل ليس لها البتة وجود مستقل كشخصيات الأحلام . « وقد عرضت هذه المنظومة تحت واجهة ما أسموه بـ« الأنانية (égoisme) وذلك أثناء القرن الثامن عشر وبالتحديد من قبل (Wolff) وقد إعتبر الطبيب – الفيلسوف « كلود بروني» *(Claude Brunet)* كأبرز ممثل لنزعة « الأنانة » *(Solipsisme)* فقد كان هذا الطبيب يدرس المبادئ الأساسية للمثالية الحديثة وقد تمحورت تصوراته حول « الأنا » *(Le moi)* أي أن الأنا وحدها هي التي لها وجود فعلي وربما كان «كانط » محقا في إعتبار «الأنانة» كعشق للذات *(amour de soi)*.

يبدو أن « المثالية » لها دور في إنتاج مايسمى « بالأنانة » بإعتبار كون المثالية في مجملها منذ افلاطون وصولا إلى ديكارت انبنت على قدسية العقل أي أنها أعطت سلطة مطلقة للعقل ويبدو لي أن العقل « يعشق ذاته » ويتعامل مع «صورته » بنرجسية ولذلك يتمحور حول ذاته وحول « أناه » ويبدو أن« ديكارت » قد هيأ لتصور«الأنانة».

وإن كان البعض يعارض ذلك ونحن نؤكد على « أنانوية » ديكارت إنطلاقا من الكوجيتو ( أنا أفكر إذن فأنا موجود ) أي أن ديكارت عند صياغته للكوجيتو لم يأخذ بعين الإعتبار الآخر بل الأبعد من ذلك لم يأخذ بعين الإعتبار حتى جسمه إذ يقول « لذا ثبت عندي أن هذه الأنا ، أعني نفسي التي بها أكون أنا ما أنا ، تتميز عن جسمي تميز ا تاما حقيقيا . هي قادرة على أن تكون أو توجد بدونه »(15) .

فهذا القول يعكس « أنانوية » ديكارت ولا مبالاته تجاه الأخر في تشكيل ذاته أو « أناه » .

من هذا المنطلق ، ندرك أن الوعي بالذات هو الحقيقة الأولى في فلسفة ديكارت وبالفعل ، فإن هذا الفيلسوف جعل من الكوجيتو كأساس لفلسفة برمتها بل جعل منه كحقيقة أكثر إطلاقية وأكثر بداهة من الحقائق الرياضية نفسها ولكن هذا لا يعني أن الآخر منفي تما ما من فلسفة ديكارت بل فقط لا يمثل شرط الوعي بالذات وليس له حضور أولي من الناحية المنطقية بل له حضور لاحق منطلقا للوعي بالذات تماما مثل الجسم والله والعالم .

## 3) الآخر كحقيقة أو كضرورة في الفلسفة المعاصرة :

يبدو أن « هوسرل » هو الذي إفتتح عهدا جديدا في الفلسفة المعاصرة وبشكل خاص من خلال كتابه « تأملات ديكارتية » ، فهذا العنوان للأثر الفلسفي قد يوحي بوفاء « هوسرل » للتقليد الفلسفي الديكارتي غير أن ما فعله « هوسرل » على صعيد نظري مخالف تماما لما أنجزه ديكا رت .

إذ عرف « هوسرل » بتوسيعه للكوجيتو الديكارتي وأهم ما في هذا التوسيع هو حضور الآخر الذي إعتبر على أساس كونه « ملازم للكوجيتو » (16) غير أن هيدجر هو الذي عمق أكثر علاقة الأنا بالآخر وذلك من خلال مفهومه الحامل لتصوره لهذه المسألة وهو :« Mit -Sein » (L'être -avec) أي أن الأنا لا يمكن أن يوجد إلا في إطار علاقته بالآخرين ( « الوجود –مع » ) . وقد حلل « سارتر » مفهوم « الوجود –مع » الهيد جيري في كتابه « الكينونة والعدم » (17) و ذهب إلى كونه لا يعبر عن علاقة تبادلية « إعترافية » و«صدامية » بل يعبر بالأساس عن شكل من أشكال « التضامن الأنطولوجي » لاستغلال هذا العالم .

إن الآخر له وجود فعلي خارج ذاتي بإعتبار كون صورتي تتشكل من خلال الآخر ، فقد بين « سارتر » أن الإنسان لا يكون إنسانا شريرا أو خيرا أو حسودا أو حشوما إلا إذا إعترف له الآخرون بذلك فلكي أكوّن فكرة عن ذاتي لا بد أن أمرّ من خلال الآخر .

إتخذ « سارتر » مثال « الحياء «إذ يقول : أنا أستحي من نفسي فالحياء يحقق علاقة حميمة بيني وبين ذاتي أكتشف عن طريق الحياء بعدا من أبعادي »(18).فمثال الحياء بقدر ما يعكس العلاقة الحميمة بيني وبين ذاتي يعكس أيضا حضور الآخر ، إذ لا أستحي بمفردي بل أستحي تحت تأثير الآخر الذي « يحرجني ويزعجني ويجعلني أستحي إذ يقول سارتر :

« الحياء في بنيته الأولى هو حياء أمام إنسان ما (19) . فالآخر هو السبب في إحمرار وجهي وحيائي أي أن الآخر يشكل صورتي وملامحي كما بين « سارتر » أن « الآخر » لم يكشف فقط عما أكون بل أعاد تشكيل كينونتي وفق شكل أو نمط جديد (20) ومن هذا المنطلق ندرك التصادم فيما بين الأنا والآخر في الفلسفة الوجودية السارترية وهو ماتبينه بشكل خاص من خلال عمل سارتر « الجلسة المغلقة »(Huis clos) عندما إعتبر (الآخرين كجحيم ) ولذلك يمكن القول أن الوجودية السارترية تمحورت حول خيارين وهما : إما أنا أو الآخر» مثلما عبر عنهما « ماربونتي » في كتابه : ظاهراتية الإدراك » (21). فهذان الخياران كما طرحهما سارتر « غير بريئين بإعتبار كونهما يتضمنان « حتمية » إزالة خيار وبإعتبار كون (الآخرين كجحيم )فإن الخيا ر الوحيد المتبقى سيكون الأنا .

يبدو أن ما إعتبر ه «سارتر » ك » جحيم » قد أقره «هوسرل » كملازم للكوجيتو » وذلك في مستوى التأمل الخامس من كتابه : تأملات ديكارتية » ففي هذا التأمل الذي خصصه : « هوسرل » لمشكلة تجربة الآخر يمكن أن نرصد العديد من المستويات لفهم تجربة الآخر ولعل أهمها هي المستويات السبعة (22) -وفق ما نعتقد عند فحصنا لأفكاره - ففي مستوى أول أدرك الفيلسوف «الآخرين » كمو جودين الفعل في سلسلة تجارب » وفي مستوى ثان أدركهم كموضوعات «العالم» وفي مستوى ثالث أقر بالآخرين على أساس إدارتهم « النفسية لأجسادهم الفيزيولوجية « فهم » موضوعات بسيكو - فيزيائية » وفي مستوى رابع أقر بـ « الآخرين » على أساس كونهم « فـي » العالم وفي مستوى خامس أقر بالآخرين كـ « ذوات » وفي مستوى سادس بين أن الآخرين لهم « تجربة الأنا» مثلما أنا لي تجربة بالعالم » ، هذا العالم الذي يوجد فيه الآخرون وفي مستوى سابع يقر بـ المابين ذاتي ».

إن هذه المستويات تكشف عن «التواصل » المابين -ذاتي فيما بين الأنا والآخر وعدم إنغلاق أحدهما على نفسه خاصة وأن الذوات جميعها تعيش في «هذا» العالم نفسه وما الإنسان سوى « كينونة -في -العالم» مثلما أقرت الفينو مينولوجيا بصفة عامة سواء مع «هوسرل» أو مع «هيدجر » أو مع «مارلوبونتي» . ونتبين أهمية «التواصل» في الفينومينولوجيا مع «مارلوبونتي» من خلاله كتابه «ظاهراتية الإدراك «حيث» إعتبر اللغة كشرط جوهري لتجاوز أو لتحطيم« الإختلاف الطبيعي » فيما بين «الأنا» و « الآخر» إذ يقول :

« فإن كان الأمر يتعلق بشخص مجهول لم ينطق بعد تجاهي بكلمة واحدة ، يبقى بوسعي الإعتقاد أنه يعيش في عالم مغاير لعالمي ... لكن يكفي أن ينطق بكلمة أو أن تصدر عنه حركة تنم عن نفاد صبره حتى يكف عن الإستعلاء عليّ . ذلك إذن هو صوته ، وتلك هي أفكاره » (23) فاللغة هي الشرط النظري - العلمي للـ «مابين ذاتية» أي للتواصل فيما بين الأنا والآخر ولتجاوز الإختلافات ، فحتى يكف « الآخر » عن أن يكون «غريبا » ومختلفا عني وحتى لا تبقى « الأنا بدورها «مختلفة» لابد من الكلام أي لابد من الإستعمال اللغوي حتى يزول «الإختلاف الطبيعي » وقد يكون الكلام أفضل من الكتابة

مثلما يذهب إلى ذلك المفكر الأرجنتيني «بورخس» عندما إعتبر «الكتابة سجن» «والكلام حرية» وعندما أستنتج أن عظماء الإنسانية من أمثال «سقراط» كانوا قد فضلوا الكلام على الكتابة فالكلام - وفق ما أعتقد - له مكانة خاصة حتى بالنسبة إلى الفينومينولوجيين كما يقول «مارلوبونتي» في النص السابق ذكره : إذن هو صوته».

يبدو أن «مارلوبنتي» فكّر مثلما فكر «بورخس» إذ أول ما رصد هو «الكلام» لما في الكلام من «حرارة ذاتية» ومن حميمية إنسانية» فأن نتمرس بالكلام نكون «نحن» ويكون الأنا مع الآخر ويكون «الوجود -مع» .

**4) من ضرورة الآخر إلى ضرورة الأنا أو ضرورة «عشق» الذات:**

يبدو أن «الآخر» يحرج الأنا في العديد من المواضع وشديد الإزعاج لها ، فالعلاقة فيما بين الأنا والآخر متوترة أي أن العلاقة في جوهرها مبنية على «النزاع» (Conflit) مثلما بين «سارتر» ذلك في كتابه «الوجود والعدم» : ماهية العلاقات فيما بين (كيانات) الوعي ليست الوجود مع بل النزاع» (24) وفي هذا المجال نستحضر «هوبس» الذي يعتبر «الإنسان ذئب للإنسان» .وبالفعل يبدو أنّ «الأنانية» L'égoïsme متأصلة في الإنسان مثلما بين ذلك علم النفس الحديث عندما إعتبر أن المرحلة الأولى التي يعرفها الطفل -الإنسان هي «التمركز حول الذات» (L'égocentrisme) فالطفل في المرحلة الأولى من حياته متمحور حول «أناه» ويعتبر كل العالم وكل ما فيه موضوع ملكية له وبالتالي فإن «التمحور حول الأنا» أو عشق الذات» هو الأقرب والأكثر إنسجاما مع طبيعتنا البشرية وقد بينت الدراسات النفسية - الفرويدية المجددة أن «الآخر» الذي يميل إليه الطفل هو «الأم» فهي «الـ «أ» الصغرى في حين أن الأب يبقى غريبا وأجنبيا عنه فهو «أ» الكبرى ولعل إعتراف الطفل بالأم هو تكريس لعشقه لذا ته وهو ما يمكن تبريره بـ «أوديبيته» وقد تحدثت «المفكرة سالومي (25) (صديقة نييتشه) عن إيجابية «نرجسيتنا الفكرية» أي عن إيجابية حبنا لذاتنا المفكرة لرغباتنا إلى حد إعتبارها كأساس مطلق لسيكو لوجيتنا ولقدرتنا على الإبداع والخلق .

ويبدو أن «سالومي» تستمد هذه الفكرة من «علاقتها الحميمة» نيتشه ومن فلسفة هذا الأخير بإعتبار كون «نيتشة» ككان يردد دوما في رسائله : كتبت إلى نفسي ذاتها» (26) .

فالكتابة (أو الإبداع أو التفكير) تبرز أكثر من أي مجال آخر النرجسية وضر ورة عشق «الأنا» التي تريد أن تخترق الزمن لتخلد بواسطة آثارها وإبداعاتها.

**الإحالات :**

(1) انظر ترجمة موسى وهبة لكتاب «نقد العقل المحض» مركز الإنماء القومي .بيروت. تاريخ الطبعة غير مذكور.

(2) انظر ترجمة جورج سعد لكتاب «ماهي الفلسفة ؟ دولوز .دار عويدات الدولية . بيروت -باريس. الطبعة الأولى 1993.

(3) نفس الطبعة ونفس الترجمة المذكورة سابقا .

(4) النص الأصلي بالفرنسية :

«La philosophie est l'art de former,d'inventer, de fabriquer des concepts» (Deleuze / Guattari. Qu'est -ce que la philosophie ?
Les éditions de Minuit 1991 )

(5)La phénoménologie de l'esprit Ed . Aubier
(6) Vocabulaire technique et critique de la philosophie Lalande
(7) La phénomènologie de l'esprit Hegel Ed Aubier T1.pp. 158-159

اعتمدنا ترجمة الكتاب المدرسي (أنا أفكر شعبة الأدب).

(8) La phénoménologie de l'esprit Hegel Ed Aubier,T1 Ibid .pp.158 -159.
(9) (نفس الترجمة المذكورة)
(10) Ibid .pp.158 -159.
(11) Ibib
(12) Ibid
(13) Ibid

(14) Lalande Vocabulaire technique et critique de la philosophie

(15) ديكارت. تأملات ميتافيزيقية. ترجمة الدكتور كمال الحاج

.منشورات عويدات بيروت . باريس تاريخ الطبعة غير مذكور .

ص 228 ( التأمل السادس )

(16) Husserl.Méditations cartésiennes vrin . 1969.P 75.
(17) Sartre L'être et le néant Gallimard . 1943 P.291
(18) Ibid P. 265
(19) Ibid P. 265
(20) Ibid P. 265
(21) Merleau -Ponty Phénoménologie de la perception Ed . Gallimard.P . 414

إعتمدنا الترجمة العربية لهذه القولة الواردة بنص في كتاب

المدرسي ( أنا أفكر بشعبة 7 الآداب سنة سابعة )

(22) Hussel. Méditations cartésiennes .vrin 1969 / P.76.
(23) Merlau -Ponty Phénoménologie de la perception Ed . Gallimard

(24) إعتمدنا كتاب :

Mounier «Introduction aux existentialismes» ed .Denoël 1946/P. 132

ففي هذا الكتاب استـدل « مونيي» بقولـة «سـارتر» - القولة

الفرنسية :

«L'essence des rapports entre consiences n'est pas le mitsein c'est le conflit»(Sartre l'être et le néant )
(25)Lou andreas - Salomé
Friedrich Nietzsche à travers ses oeuvres traduit de l'allemand par jaques Benoist Méchin . Grasset 1992 Paris
(26) Ibid . P27.








مجلة المسار يصدرها اتحاد الكتاب التونسيين، أسسها محمد العروسي المطوي

- الحساب البريدي 2212/83

-سعر المجلة : ديناران او ما يعادلهما للأفراد

3 دنانير للمؤسسات

- الاشتراك السنوي : 15 دينارا (مع اضافة معلوم البريد)

-الاشتراكات التشجيعية مفتوحة

- في البلاد العربية 20 دولارا، في البلاد الأخرى 30 دولارا...

لوحة الغلاف للفنان والمبدع الفلسطيني محمود شاهين

الإنجاز الفني Climat Pub - الهاتف : 255.087

طباعة : مطبعة فن الطباعة تونس - الهاتف : 349.738